

8.5.2017

رواية

عشيق المترجم



جان دوست



رواية

عشيق المترجم

جان دوست


عشيق المترجم

عشيق المترجم

تأليف: جان دوست

الطبعة الأولى 1435 هـ - 2014م
تدمك ISBN 978-9948-22-191-3
SIZE: 14 X 21 كتاب من القطع الوسط عدد الصفحات (206 صفحة)

الناشر: دار ورق للنشر والتوزيع



دار ورق لـلـنـشر
والـتـوزيــع
DAR WARAQ PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

T : + 971 4 264 4410
F : + 971 4 272 2077
P.O. Box : 91110 Dubai, UAE
info@darwaraq.ae
www.darwaraq.ae

الإمارات العربية المتحدة - دبي - الممزر - بناية بحيرات الممزر - ميزانين مكتب رقم «8»
الطباعة . www.upp.ae دولة الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي

إهداء:

إلى زين....

تقفين وراء كل حرف.

"وقَدِّرْ في السَّرْد واعملوا صالحاً"

قرآن كريم. سورة سبأ، الآية (11)

الفصل الأول

I- مرآة الحيرة

كادت نار الموقد تخبو حين قال المترجمُ العجوز وهو يقلّب في إحدى يديه شظية مرآة مستطيلة دون أن يحدّق فيها لخادمه الألباني النحيل:

اكتب يا يونس ما سأمليه عليك الآن.

غمس يونسُ القصبةَ في المحبرة الفضية، ثم أخرجها ضامّاً رأسها بين سبابته والإبهام، فنفضها مرتين، ثم حنى جذعه متهيئاً للكتابة فيما ركّز العجوز نظرات عينيه الصغيرتين في النافذة العالية كمن يتصيد بفخاخ الذاكرة عصافيرَ الخيال في حقول السنوات، وقال بصوت خفيض:

"أنا العبد الفقير التائه، الراجي عفو إلهه، مُسَوِّدُ قراطيس الأيام بمداد الآثام، الترجمان..".

وقبل أن يكمل العجوز جملته تلك ويدوّنَ اسمه الجميل، تنهد بعمق ونظر ملياً في شظية المرآة ثم رفع رأسه إلى خادمه وقال:

لن أبدأ هكذا يا يونس. لن أطرح نفسي على مائدة الحرف منذ أول سطر في كتابي.

لن أستغرق في ديباجة تشبه ما دبّج به الآخرون فواتح كتبهم. سأكون مختلفاً عن الكل فلا خير فيمن يتبع الأوائل حافراً على حافر دون إعمال فكر وشحذ خيال.

تناول قرطاساً آخر أيها الفتى الصبور.

وضع يونس، الصبور - كما وصفه المترجم العجوز، الورقة التي ما زال مداد سطرها اليتيم المبتور رطباً بجانبه، ثم تناول ورقة عذراء أخرى من رزمة الأوراق الإفرنجية وتهيأ كما تهيأ آنفاً لتدوين ما سيمليه عليه الترجمان العجوز.

"كنت في العاشرة من عمري حين رحل أبي - رحمه الله - إلى درة الشرق أعني مدينة حلب الشهباء للتجارة، هناك تعلّمت الخط والقراءة، ومبادئ النحو والصرف والمنطق والحساب وقرأت القرآن..".

توقف.

بكلمة توقف عقَّب العجوز بحدة على محاولته الثانية كمن يمنع طفلاً من التقاط جمرة بيده. وإذ فغر يونس النحيل فمه دهشة، أسند العجوز شظية المرآة إلى كتاب بجانبه وأكمل بانكسار يخالطه حنان باهر:

توقف يا يونس.

لا أستطيع أن أسرد لك سيرة حياتي الآن. هذه المرآة تخطف ذاكرتي، تمنعني من تذكر أي شيء عدا ذلك الألم وتلك الحيرة.

*****

لمرات عديدة حاول المترجم العجوز في تلك الليلة الباردة أن يملي على

خادمه الألباني الصبور يونس فاتحة الكتاب فلم يفلح.

كان حائراً بين أن يبدأ من طفولته حين أخذه والده التاجر بصحبته إلى حلب فتلقى العلم على يد علمائها، وبين أن يبدأ من رحلته إلى بلاد الفرنجة، بلاد الصلبان كما سيسميها أبوه وهو أيضاً، بهدف أن يتعلم لغاتها ويصبح حين يعود ترجماناً في الآستانة أو أي حاضرة أخرى من حواضر مملكة آل عثمان.

لكن تلك القطعة المزوّاة من مرآة قديمة كانت تزيده في ذلك الصباح حيرة على حيرة وتمنعه من التركيز وإملاء سيرة حياته بهدوء. كانت، تلك الشظية بزواياها العديدة وأضلاعها المستقيمة أو قليلة الانحناء والتي لا تظهر من الوجه إلا أجزاء منه، بلا شك قطعة من مرآة أكبر. وقد منعته من البدء بإملاء ما جرى له من النوائب وما صادفه من محن وأيام صفاء وسرور وغصص ونكبات وكأن لسان حالها يقول: لن أدعك إلا أن تبدأ بي، أنا الجديرة بأن تروي حكايتي التي حبستها في سجون النسيان لسنوات طويلة. حررني.

حررني أيها العجوز الذي منحتك مالكتي متع الحياة في أول شبابك. أتريد أن تنسى جراحك وهي نار لا تخمد؟

أتريد أن تدفنها وهي لم تمت بعد؟ لِمَ – إذن– احتفظت بي كل هذه السنين ولم تتذكرني إلا في هذا اليوم الذي تريد فيه ترك خراف حياتك تسرح على قارعة القراطيس؟ أنا مرآة حيرتك وجنونك وشهواتك. أنا الشاهدة الوحيدة على كل آثامك اللذيذة، أتريد الآن أن أغيب لتخلو بمرآتك الأخرى أعني ذاكرتك التي توشك أن تريقها على الورق مداداً يرسم نبرة صوتك المتهدج قبل أن تسقط في هاوية الخرف؟ لا والله أيها العجوز. ستبدأ بي أولاً فإذا فرغت مني تنصرف لبقية حكاياتك.

كان لا بد للعجوز أن يزيح تلك المرآة العنيدة عن درب حكاياته أو يسرد أولاً قصتها لخادمه وينزل عن كاهل ذاكرته عبء ذلك الألم الذي كتمه طوال كل تل السنين.

ما كان يونس رآها من قبل في يد مولاه وأستاذه الترجمان العجوز، ومع ذلك فهي لم تلفت نظره إلا حين جعلها العجوز حجة لعدم تركيزه وتشتت فكره وحيرته في بدء سيرته، فقال مدفوعاً بفضول نادر لم يألفه في نفسه:

وما منعك من حبس حكايتها يا مولاي؟

حكايتها حبستني يا يونس.

كيف ذاك؟

لم يجب الترجمان الذي كانت سفينة خياله مشدودة بأمراس لا مرئية إلى شاطئ زمن لا مرئي.

كان الظلام يتمدد كرشحة حبر إذ تسقط في كأس ماء، وسرعان ما عمَّ البلدةَ الصغيرةَ سكونٌ هيأ للحكاية طنافسها المبرقشة، وللسرد نمارقه الأنيقة كي ترتب الكلام بما يقتضيه الكلام من مراتب يعجز عن ترتيبها ضوء النهار.

وإذ وهب الليلُ المكانَ سكونَه الباذخ، نالت الحجرةُ الصغيرة، حيث الترجمان العجوز وخادمه المتهيئان لتدوين وقائع سنوات غابرة، نصيبها من هبات الليل: ذاك الظلامَ وتوأمَه الأخرسَ أي السكونَ البهي. حينها طلب العجوز من خادمه أن يرمي بعض الحطب في الموقد الغافي ويشعل السراج لكي يبصر القلمُ مواطئ سيره على الأوراق البكر التي كانت تنتظر فتنة المضاجعة الأولى مع الأبجدية.

وحين اندلق النور من المشكاة الصغيرة في الجدار الشمالي للحجرة ومن

الموقد الحجري القريب من المشكاة تنافست الأشياء لتعلن للمكان حضورها الأكيد، وتفرش للحكاية الحبيسة مسالك السرد الوعرة فكانت شظية المرآة اللجوجُ المركونة إلى كتاب بجانب الترجمان أول تلك الأشياء، وقد أسبغ الضوء الأليف على زواياها العديدة سحراً وحشياً فانعكست على فضتها صورةٌ ناقصةٌ لترجمانٍ توشك حكاياتٌ منسية أن تهطل من غيم عينيه.

II- إستر

سكت المترجم العجوز عن سرد حكاياته واغرورقت عيناه بعسل النعاس، فأطفأ خادمُه السراجَ ومضى لغرفته الصغيرة لصقَ غرفة مولاه ليلقي بنفسه في هاوية النوم، حينها بدأ الليلُ يهمس حكاياته البيضاء في أذن القرية الصغيرة الواقعة في الجنوب الغربي من مدينة أنطاكية. كانت تلك القرية التي تسمى ميدان، والتي اتخذها والده مصيفاً له ولعائلته بعد أن امتنعت أمه عن الرحيل منها إلى أنطاكية، جنةً صغيرة وادعة جميلة تجاور البحر الأبيض المتوسط وتسمع وشوشته وغزله المائي وهمس موجه، وتتكئ مثل أميرة على تلة عالية في شرقيها تستقبل البحر الذي يغسل قدميها برذاذ موجه كل صباح وكل غروب شمس. "إنها قرية تعشق الموج ويعشقها الموج" هكذا كان يصفها الترجمان العجوز لتلميذه وخادمه وكاتبه النبيه يونس الألباني دائماً.

في تلك القرية الصغيرة، عشيقة الموج بمقتضى الوصف السابق، هطل الثلج

بغتة مثل لص غِرٍّ فترك آثار أقدامه الناصعة في كل زاوية من دار المترجم العجوز التي يُسمع منها صوت عناق الموج لصخور بحر الروم ورمله الذهبي. أثقلت خطى الثلجِ اللصِّ أغصانَ شجيرتي النارنج والليمون في الجهة الجنوبية من المنزل فانحنت وتدلّت كأنها تستطلع البساط الثلجي الناعم تحتها. أما شجرةُ الكينا الكبيرة في وسط الدار والتي كانت ملتقى العشاق من العصافير في الصيف الماضي حتى إنه لم يبق فننٌ لم يسافد عليه عصفورٌ عصفورتَه، فقد استقبلت غصناً غصناً هبة السماء الرطبة الباردة الخفيفة البيضاء وطفقت تتأمل مفاتنها في مرآة خيالها النباتي.

حين نهض العجوز من النوم صباح اليوم التالي، لم يبق في فراشه ليفرك عينيه كعادته، بل ذهب يطلُّ من الشباك على ضيفه السماوي ثم عاد مغتبطاً ليجلس على حافة السرير حين دخل يونس الخادم وبيده حزمة من الحطب وقد غمره فرحٌ طفولي عارم.

فاجأنا هذا اللص الظريف. إنه ثلج نادرٌ لم أشهده في القرية منذ طفولتي. كانت الغيوم أمس كثيفة وبيضاء وكان الهواء ساكناً يسترق السمع إلى وسوسة الليل ويشي بحدوث شيء ما.

قال العجوز مبتسماً وهو يشير برأسه إلى النافذة. وضع الخادم حزمة الحطب بالقرب من الموقد، وقال وهو لا يزال مغموراً بفرحه الطفولي:

فلندعِ الموقدَ يحتفي بقدوم الثلج إذاً.

ألقى يونس جملته تلك من فمه وهو يلقي الحطب في الموقد الغافي. أشعل النار ثم أحضر طعام الفطور لمولاه. كان ذاك فطوراً دأب المترجمُ على تناوله مذ عاد من رحلته في بلاد الفرنجة: حباتُ زيتون ولبنٌ خاثر صُفِّيَ ماؤه

فتصلب ورُشَّ عليه ذرور النعناع مع خصلة صغيرة من الصعتر البري اليابس ورشحة من زيت الزيتون ثم قليلٍ من العسل مع كسرة خبز. أما يونس فكان يلازم تناول البيض مسلوقاً أو مقلياً مع كأس من الحليب المحلى بالعسل، حتى إن العجوز كان يمازحه على الدوام قائلاً: "ذات يوم ستسمع من بطنك قأقأة أسراب الدجاج وهي تبيض". وإذ كانت وجنتا الفتى يونس تحمر خفراً، كان يلاطفه العجوز ضاحكاً: "أما أنا فسأتحول زينوتة تظلل أفراخ دجاجاتك".

سرى الدفء رويداً رويداً في أوصال الحجرة، وصار اللهب يتكلم بلغة النار الفصيحة بعد أن كان حطباً أعجم، وحين أحس العجوز في نفسه ببعض النشاط قال مغتبطاً:

أمس لم تقلع سفينة خيالي، وبقيت مشدودة إلى الميناء بأمراسها الغليظة ومراسيها الثقيلة. اليوم غير الأمس يا يونس. اليوم ستطير الحكايات من قفران الذاكرة كنحل هائج. عليك بالقلم والدواة والقراطيس.

أحضر يونس رزمة الأوراق الإفرنجية التي جلبها المترجم العجوز معه من روما وجلس بالقرب من سرير العجوز، رفع قرطاساً صقيلاً وهيأه للكتابة، غمس القلم في المحبرة الفضية وانتظر الحكاية.

في يوم الأحد، الحادي عشر من شهر......

لم يكد الترجمان العجوز ينهي عبارته تلك حتى أسرع يقول بنبرة اعتذار: "لا يا يونس، لا تكتب هذا. لم يحن أوانه بعد". وضع الفتى يونس القلم من يده ومدده برفق بجانب المرملة، وهي وعاء يوضع فيه الرمل الناعم ثم ينثر على الورقات ليجف حبرها سريعاً، وصار ينتظر. مرت لحيظاتُ صمتٍ بدَّده العجوز قائلاً بحبور: "كنت في السابعة عشرة من عمري وكان أبي يريدني أن

أكون ترجماناً لحاجته إلى ذلك في التجارة، ولتحقيق رغبة دفينة قديمة بقيت حسرة في قلبه وهي ترجمة ونقل الكتب من لغات الفرنجة إلى العربية والتركية عجز هو عنها لانشغاله في أمور الدنيا".

بقي يونس ساكناً دون أن ينحني على الورقة التي هيأها للتحبير. فهم العجوز إحجامه فابتسم وقال: "لا تتردد يا يونس. الريح رخية والبحر هادئ وسماء الخيال صافٍ رائقٌ الآن، أعدك ألا تمحو ولو نصف سطر مما سأمليه عليك. اكتب على بركة الله:

كنت في السابعة عشرة من عمري، أخاً وحيداً لأخوات ثلاث، وكان أبي يريدني أن أكون ترجماناً لحاجته إلى ذلك في التجارة، ولتحقيق رغبة دفينة قديمة بقيت حسرة في قلبه وهي ترجمة ونقل الكتب من لغات الفرنجة إلى العربية والتركية عجز هو عنها لانشغاله في أمور الدنيا. وطالما سمعته يقول في أوقات بسطه وانشراحه: "لا بد أن يأتي يوم أجمع فيه حولي التراجمة لينقلوا لنا ما في خزائن الإفرنج من علم ومعرفة". كانت أمي تسخر منه وتقول: "ستموت بهذه الحسرة يا رشدي. من يسعى في طلب المال يعجز عن نيل المعرفة". وكان أبي يرد بعناد كبير: " سأصل إلى ما أبتغيه ولو في يوم موتي. أما إن مت دون تحقيق مرامي فولدي هذا سينوب عني". ويشير إليّ بافتخار شديد.

ولما كان والدي – رحمه الله – تاجراً آتاه الله بسطة في المال وسعة في الملك والجاه وله صلات واسعة بالتجار والمترجمين وأكابر القوم، نصحه راهب ماروني من حلب – كان يتردد على أنطاكية كثيراً وتوطدت بينه وبين أبي أواصر صداقة متينة– أن يرسلني إلى إيطالية لأتعلم الإيطالية واللاتينية على

أصولهما بعبارة ذلك الراهب. وقد أعجب أبي بالنصيحة، خاصة بعد أن شجعه على العمل بها تجار من جنوة والبندقية ومرسيلية أيضاً. جرى كل ذلك سريعاً وكأن أبي خطط له منذ مدة مديدة، لكنني ما كنت راضياً بالسفر إلى إيطالية لكُرهي الغربة وتعلقي بفتاة يهودية كنت أطارحها الغرام، وكانت أول أنثى يطرب خافقي لها وتضطرم النار بين جوانحي لرؤيتها ويصيبني البكم حين أقف أمامها متأملاً سنونوتي عينيها.

توقف العجوز عن السرد حين أحس تململاً من خادمه يونس، وقال كمن يعتذر: "لقد تهت عن قصتي أليس كذلك؟"

أجاب يونس فرحاً بهذا القسط من الراحة: "لا يا مولاي، هذا ليس تيهاً، بل هي الذاكرة الغافية إذ يشتعل حطبها بنار السرد".

طرب العجوز لنباهة خادمه ولطفه وبديع استعارته ثم رفع جذعه قليلاً ليلقي نظرة من النافذة الجنوبية على شجيرتي النارنج والليمون المشغولتين بسرد البياض للبياض، ثم عاد إلى جلسته ليقول بحزن: "أي سر في هذا البياض السماوي؟ إنه يثير الشجن والسرور معاً".

رد يونس وهو يسكب الرمل من المرملة على ما كتبه آنفاً ليجفف السطور: "وكذلك القراطيس يا مولاي".

هزّ العجوز رأسه متنهداً: "وكذلك القراطيس يا يونس". ثم كرر الجملة وكأنها أعجبته: "وكذلك القراطيس".

وبعد هنيهة، حين آنس المترجم العجوز من خادمه يونس إصغاء لقصته، أخذه الحماس ليروي بقيتها بعد أن كاد يدعها نهباً للنسيان فطلب من يونس أن يرسم ثلاثة أنجم سداسية الشعاع أسفل آخر سطر دوّنه ليفسح المجال لقادح

الذاكرة كي يشعل هشيم ذكرى حب عاصف هبَّ على القلب ذات صباً غابر فقال: "أكمل معي بناء الحكاية يا يونس". ثم ركز نظراته في النافذة حيث كانت ريح خفيفة تذرو الثلج فتثير منه ما يشبه غباراً أبيض، وواصل سرده:

كانت تُدعى إستر. وكانت فتاة سمراء البشرة، مكتنزة اللحم، صافية العينين سوداءهما كأنهما سنونوتان، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام، نحيلة الخصر. ولقد عرفنا فيما بعد نتفاً من قصتها الحزينة. فقد كانت طفلة يتيمة الأبوين من قرية بالقرب من جبل موسى. ولما كان إسحاق الصفار الأرمني يدور على قرى كثيرة فقد لفتت إستر النبيهة نظره إليها، فتبناها وصار يأخذها معه إلى قرى المسلمين لتدخل البيوت بلا حرج وتساعده في كسب رزقه وتقول له يا أبتِ، ويقول لها يا ابنتي. ولقد علقت بها مذ كنت يافعاً في الثالثة عشرة من العمر حين كان الصفار يدور كل يوم جمعة على بيوت القرية التي اتخذها وينادي بصوت جميل كأنه يقرأ المزامير: "هلموا بأوانيكم ومواعينكم أجليها، هلموا إليّ لأجعل قدوركم وصحونكم بيضاء تلمع كالبدر". كانت أمي كلما تسمع صوته، تبتسم وتقول: "ها قد جاء اليهودي الأنطاكي"!

والأنطاكي لقبُ تحببٍ كانت أمي - رحمها الله - تردفه إلى صفة اليهودي لكي تخفف وقع الكلمة التي كانت تثير بعض الخوف وشيئاً من كراهية غامضة بسبب ما أشيع أن اليهود تفوح منهم روائح الجثث ويخطفون أطفال المسلمين والنصارى ويقدمونهم قرابين في أعيادهم الدينية. وكلما جاء أبي ليصحح لها قائلاً: "إسحاقُ أرمنيٌّ نصرانيٌّ وليس يهودياً يا امرأة". كانت أمي ترد لا مبالية: "هم سواء. هم سواء". واليهودي الأنطاكي هذا- بتعبير أمي- أو إسحاق الصفار كما كان رجال القرية يسمونه، كان رجلاً لا يخلو من

دماثة في الخلق ومهارة في الإقناع، حتى إن ربات البيوت كنّ يضحكن على أنفسهن ويقلن بعد أن ينصرف: "يا ويحنا! كيف خدعنا الصفار وجعلنا ندفع له حتى مواعيننا المجلية الصقيلة؟".

كنت أرى إستر، كلما جاء إسحاق الأرمني إلى القرية، جالسة إلى جانب أبيها، فلنعطه هذه الصفة، في العربة التي كان يجرها بغل هزيل يسوطه الصفار برفق على كفله. ولما كان الصفار ممنوعاً من دخول بيوت المسلمين فقد كانت إستر اليهودية، ولنقل ابنته، تساعده في إحضار الأواني وتدخل إلى كل بيت بلا حرج.

في المرة الأولى حين دخلت إلى بيتنا وأخذت قدر أمي الكبيرة ومقلاتها، رأيناها تكاد تترنح تحت ثقل القدر، أشفقت أمي عليها وأرسلتني لأعينها في حمل الآنية الثقيلة. نظرت إستر إليّ بصمت وابتسمت. نظرتها الصامتة تلك وابتسامتها اللطيفة زلزلتاني. لم أفهم ماذا جرى لي، أحسست بقلبي يكاد ينخلع من صدري لشدة خفقانه. وحين مددت يدي إلى القدر وتناولتها منها، لمستْ كفّي ظاهرَ يدها فسرت رعشة لم أعهدها من قبلُ في كل بدني. كنت أنظر إلى عينيها وأنا أحمل القدر وأمشي بموازاتها دون أن ينبس أحدنا بحرف حتى وصلنا إلى العربة حيث ينتظر إسحاق الأرمني. وضعت القدر بجانب المقلاة التي وضعتها إستر قبلي في صندوق العربة وذهبت لتجلس في مكانها بالقرب من الصفار الذي ساط البغل فانطلقت العربة مثيرة غباراً أوشك أن يحجب عني وجهها الأسمر الجميل الذي التفت نحوي بابتسامة ساحرة كادت أن تجعل قلبي يدور مثل عجلة خلف عجلات العربة الخشبية لولا أن أمي نادتني من باحة الدار قائلة: "أسرع يا ولدي وعُدْ لتحممك الخادمة".

كانت إستر، أقصد عينيها السوداوين، قد تركتا قلبي ذاهلاً عن الدنيا فلم أُلبِّ نداء أمي، بل بقيت واقفاً في منتصف الشارع الذي ابتلع عربة الصفار الأنطاكي أصغي لنداء لذيذ يخالطه حزن وألم، نداء تطلقه الأعين النجل فتسمعه القلوب لا الآذان، وتستوعبه الأفئدة لا العقول عرفت فيما بعد أنه يسمى الحب.

مضت شهور كثيرة وقلبي يزداد جلاء بالحب كآنية من نحاس تُصْقَل بالقلع والنار. صرت خلال تلك الشهور خفيفاً كفراشة، حزيناً كناسك ووالهاً كثكلى أنتظر أيام الجمعة كأن روحي بيداء تنتظر سحاباً ماطراً. أما إستر فكانت كلما مضى عليها أسبوع ازدادت فتنة وجمالاً. عيناها ازدادا بريقاً واكتنزت شفتاها وتكور نهداها حتى كادا يفرّان من تحت الثوب. حولان كاملان مرًّا على هذا النحو وليس بيننا إلا نظرات صامتة وكلام على عجل ولمسٌ بالأيدي حين تتسلّم الأواني وتسلّمها.

مضت أشهر ثلاثة من الحول الثالث وقلبانا في الأتون ذي النار الخرساء إلى أن جاء ذلك النهار من شهر نيسان. كان أبي في رحلة تجارة إلى ميناء الإسكندرون، أما أمي فكانت قد ذهبت لتوّها مع أخواتي إلى بيت قريبة لنا في قرية على سفح جبل موسى إلى الشمال الغربي من قريتنا. كنت في حجرة أبي أطالع صفحات من كتاب في النحو اسمه قَطْرُ الندى وبَلُّ الصدى لابنِ هشامٍ الأنصاري حين سمعت قرقعة عجلات عربة إسحاق الصفار وصوته ينادي كعادته كل يوم جمعة.

تلك القرقعة الأليفة أيقظت قلبي فوضعتُ ريشة طاووسٍ على الصفحة التي كنت أقرأ فيها ثم أطبقت دفتي الكتاب وقمت إلى باب الدار ففتحته قليلاً

ونظرت إلى الخارج، حيث تناهى إليَّ الصوت الذي كنت أترقبه كل أسبوع بلهفة العاشق المستهام ولوعة من أضناه الغرام. انتفض قلبي بشدة حين لمحت إستر تقفز من العربة مثل هرة برية ثم تنتصب في وسط الزقاق متجهة من فورها صوب بيتنا وفي يدها مواعين عدة تلمع كالفضة تحت وهج شمس الضحى. أبقيت الباب مواربا أتلصص - وكأني أراها لأول مرة- على مشيتها الفاتنة ووجهها الأسمر الذي كان يقترب رويداً رويداً حتى صرت أتبين ملامحها وأسمع أنفاسها وحفيف ثوبها وأشم عبق جسدها وأرى تلك البهجة الغامضة التي كانت تتراقص في عينيها السوداوين كسنونوتين كلما تلاقينا.

ما إن وصل المترجم العجوز إلى هذه الجمل حتى تضاعف تهدجُ صوته وغمرَ وجهَه حبورٌ مشوب بحزن هو أقرب إلى الحسرة. صارت أنامله ترتعش على وقع ارتعاش اللهب في الكانون الذي كانت نيرانه تسرد قصة الشجر الأخضر بألسنة من لهب في حجرة تضم مترجماً عجوزاً مصاباً بالنقرس يملي فصولاً من حكايته الطويلة على خادمه النبيه يونس.

لقد بلغت الحكاية هنا نقطة حرجة، ومنع الحياءُ المترجمَ من سردها وإملائها على خادمه الفتى الألباني فكان لا بد من حيلة يكتم بها العجوز بقية القصة سرعان ما تفتق عنها خياله المشتعل فقال بتعب ظاهر متثائباً:

أواه. لقد تعبت يا يونس. هاهو النقرس اللعين عاد إلى أصابعي.

ما رأيُ مولاي أن يأخذ قسطاً من الراحة؟

وهو كذلك. سأغفو قليلاً. ويمكنك قبل ذلك أن تعدَّ لي مغليَّ الكركم والزنجبيل مع ورق الهندباء بالمقادير التي تعرفها.

حباً وكرامة.

عمد يونس إلى إبريق فملأه ماء ووضع فيه الأعشاب المجففة التي سمّاها المترجم العجوز وهي أعشاب وصفها له طبيب من الرُّها فدأب مُذّاك على تناولها كلما أتته نوبة من آلام النقرس، ثم وضع الإبريق على حديدة قرب النار حتى علا منه نشيج الماء إذ ساطه اللهب فحمله وسكب منه للمترجم كأساً ووضعه أمامه. شكره العجوز وقال وهو يكرر تثاؤبه:

سأشرب هذا النقيع المغلي ثم أنام. وعندما أتهيأ مرة أخرى للإملاء سأدعوك.

خرج يونس الألباني بعد أن أغلق المحبرة التي نقص حبرها إلى النصف ووضع القلم بجانب الورقات التي كان يسطر عليها سيرة مولاه العجوز وتركه يحدق في النافذة، حيث كانت السماء لا تزال تنصب فخاخها البيضاء الجميلة لخيال التراب.

اطمأن العجوز إلى خروج خادمه وأدرك أنه صار وحيداً مع ذكرى حبيبته الغابرة، وكذلك مع عُدة الكتابة التي أجبرته آلامُ النقرس على هجرها منذ شهور عديدة. أغرته القصبة الممددة بفتنة كبيرة بجانب القراطيس التي كانت مثل بيداء تستقبل حكايته المدونة بحبر عجول وخيال مزدحم فالتقطها بأنامل راقصة وبدأ يكمل بقية الحكاية التي أخفاها عن الخادم واحتال عليه ليدوّنها وحده كسرّ لا ينبغي إفشاؤه لأحد.

*****

بقية حكاية إستر التي دوّنها المترجم العجوز بخط يده

اقتربت إستر من الباب ثم رفعت اليد النحاسية وطرقته طرقاً خفيفاً خجولاً كعادة العذارى إذ يطرقن الأبواب. كان لارتطام النحاس بالنحاس إيقاعٌ غريب أيقظ مكامن رغبة مجهولة في النفس تردد صداه عميقاً في روحي

الظامئة. إن كل طرق على الأبواب دعوةٌ لفتحها وسعيٌ للدخول أو رغبة في اكتشاف ما وراء الباب من عوالم تحجبها الجدران أو تلبيةٌ لدعوة أو نشدانٌ لسماع حديث أو ابتغاءُ تسليم رسالة أو طلبُ معونة أو طرحُ مسألة أو التماسُ فضل أو اشتهاءُ قبلةٍ أو توقٌ إلى همسة حب وبوحِ عاشقٍ أو حتى تَوخ لإزهاقِ روح غدراً. وما كان طرقُ إستر اللذيذُ على باب دارنا ذلك الصباح المزهر من نيسان إلا بداية حب هو سليل الصواعق وتوأمُ عواصف البحر جرفت أمواجُه ما تبقى لدينا من طفولة وألقى بنا كلينا في مجاهل جزيرة من اللذة والحيرة والخوف واليأس والخيبة والرجاء.

صار قلبي يطرق صدري من الداخل بقوة أكثر من قرع المعدن للمعدن وكأنه هارب من حريق. وكان لا بد أن أفتح الباب ففتحته بلهفة عارمة. دخلت إستر فهبت عليَّ رائحة الفردوس. خلتها في تلك اللحظة حوريةً قادمة من البحر لتأخذني إلى موجه. لا أذكر كيف رحبت بها وبأية جملة استقبلتها. لكنني أتذكر جيداً أنني قرأت في عينيها السوداوين نشيداً لا يزال صداه يتردد في قلبي إلى الآن. لقد فوجئت إستر بأني المقيم الوحيد في الدار فسألتني بخفر: أين أمك؟

أنا وحدي هنا.

ارتبكت إستر وتلعثمت فزادها الارتباك فتنة وسحراً، ثم انحنت انحناءة خفيفة ووضعت بصمت الأواني المجلوة عند الباب الذي كنت قد أغلقتُه وراءها وهَمَّت بالخروج. انحناءتها الخفيفة تلك أرتني ملتقى نهديها المكورين كثمرتي شمَّام ولم أر نفسي إلا وأنا أمسك كتفها برفق وأقول لها وقلبي يتزلزل:

أحبك يا إستر. أحبك.

صعقت إستر ونظرت خلفها فوجدت الباب مغلقاً ووجدتني أقف أمامها أمنعها من الخروج.

كان صوت أبيها الدافئ يملأ الزقاق وهو يصيح داعياً الناس لإحضار الأواني الصدئة لصقلها. أما قلبي فقد صار يخفق كطائر ذبيح حين سمعت جلبة نسوة وصبية صغار يجتمعون على المبيض الأرمني يعرضون أوانيهم التي تحتاج إلى جلاء فعرفت انشغاله وقدت إستر إلى غرفة صغيرة كان أبي يختلي فيها بنفسه بعد عناء أسبوع من العمل.

جلسنا على الأريكة صامتين.

كنت أرتعش وإحساس باللذة يسري كالذّرِّ في جسدي بينما أطرقت إستر وشبكت أصابع يديها ثم وضعتهما بين فخذيها. أضحيت كالمخمور ودارت بي الدار والجدران والستائر فانحنيت عليها فجأة واحتضنتها بقوة ووضعت فمي على فمها العذب وصرت أقبلها بجنون.

كانت تلك قبلتي الأولى. كانت تلك قبلة لم تسأل عن دين أي واحد منا، بل أزالت كل ما كان يحجبني عنها ويحجبها عني، أزالت كل كراهيتي وخوفي من اليهود ومن أجسادهم الدنسة التي تفوح منها روائح الزرنيخ والجيف والكنف وحظائر الخنازير كما كنا نسمع صغاراً.

لم تكن رائحة إستر في ذلك الصباح سوى رائحة جسد بشري أزهرت خمائله وافتر ثغر حديقته عن زهور جذلى وأقاحٍ باسمة ونرجس سكران وبنفسج فواح. رائحة خمرة فردوسية أسكرتني فمضيت في تقبيلها وهي مسترخية مغمضة العينين غارقة معي في ساقية الخدر اللذيذ.

غبنا عن العالم، عن جلبة النسوة وأطفالهن، عن صياح أبيها الأرمني إسحاق

الصفار الذي ملأ الأزقة غبطةً، عن شدو الطيور على أغصان الشجر في باحة دارنا الكبيرة وباحات الدور الأخرى.

كنا كلما ازداد غيابنا عن العالم ازداد حضور جسدينا واقترب كل واحد منا من ملكوت جسد الآخر لنكتشف عوالم ما كنا ألفناها من ذي قبل. كانت يداي تسافران في مجاهل ذلك الجسد الأسمر البض الفتي الذي تركت الشمس آثار قبلاتها عليه، فتبحثان فيه عن مكامن الجمال وكنوز الفتنة، تنغرز أصابعي في شعرها الجميل فتذريه كسنابل قمح وترفع خصلاته عن وجهها الوديع، أقبل عنقها وأعضها عضاً خفيفاً ثم أهمس لها بكلمات تطفر من قاع الخيال كينابيع الربيع.

وفجأة، وبينما أنا غارق في سمرة ذلك الجسد تنهب الشهوة عقلي وتتقاذفني أمواج اللذة فترفعني ثم تخفضني، وصلت يدي من تحت ثوبها إلى الفاكهة المحرمة من جسدها الذي تخيلته في تلك الآونة حوضَ عسلٍ أغوص في أعماقه فانتفضت إستر وأبعدتني عنها قائلة:

"كفى. كفى أيها المجنون".

قالت إستر ذاك ثم استقرت واقفة متوثبة مثل غزالة برية لتتجه إلى الباب، لكنني وقبل أن تخرج لحقت بها وأمسكتها من يدها التي كانت تبدو عليها آثار سخام القدور فقلت لها وأنا ألهث: "أريدك لي. أريدك دائماً بجانبي. أنا مجنون فعلاً يا إستر. مجنون بك..وغيابك يزيدني جنوناً. أتعرفين ماذا أقول؟ أريدك لي. لي وحدي".

لم تقل شيئاً. لكنها ألقت عليَّ نظرة مبهمة ثم أفلتت يدها من يدي وخرجت لتغيب في الزقاق تاركة في فؤادي ربيعاً من الأحلام وعلى يدي آثاراً خفيفة

من السخام الأسود بينما أثارت عجلاتُ العربة خلفها غباراً ضاعت في سحابته مع أبيها والبغل الهزيل.

مضت شهور أخرى ونحن على هذه الحال: نسترق لحظات المتعة، أمد يدي إلى فاكهتها المحرمة، تمد يدها إلى بستان شبقي، تجذبنا الشهوة إلى أعماقها إن وجدنا فرصة سانحة، نتخاطف القبل السريعة كما تنقر العصافيرُ الناضجَ من الثمرات، نتعانق كلمح البرق حين يعانقُ الأفقَ الغائم، تتلامس أيدينا إن عَزَّ العناق. نتبادل رسائل الغرام ونغوص غير عابئين بعمق البحر وسوء الأنواء وارتفاع اللج حين يستحيل اللقاء.

ولقد بقينا أنا وإستر ننسج بساط اللذة على هذا المنوال إلى أن جاء أبي ذات يوم وقال لي مبتهجاً:

سأرسلك إلى بلاد الصلبان، ستذهب إلى إيطالية.

توقف العجوز عن الكتابة ونظر إلى كأس مغلي الهندباء والزنجبيل والكركم فإذا به لا يزال على حاله وقد برد، فتناوله وشربه دفعة واحدة. وبالرغم من أنه أحس بدماء جديدة يضخها الخيال في عروقه الموشكة على أن تتيبس فإنه لم يستطع الاستمرار في التدوين. كانت أصابعه تؤلمه وبخاصة السبابة والإبهام والوسطى من اليد اليمنى، حيث اعتاد أن يحتضن بها القلم الماجن كل مرة. أخفى الورقات التي دوّن عليها تلك اللحظات اللذيذة مع إستر في صندوق صغير أسفل سريره، ثم أراد أن يستريح لهنيهات فاضطجع ليغرق سريعاً في غفوة الضحى على عادته كل نهار.

*****

كانت أنامل الثلج قد توقفت عن عزف البياض حين طرق الخادم النحيل

يونس البابَ طرقاً خفيفاً. ولما تناهى إلى سمع المترجم العجوز، الذي أقلعت به مراكب الوَسَن بعيداً قليلاً عن شواطئ الذاكرة، ذلك الطرقُ الخجولُ، استيقظ وهتف بخادمه أن ادخل، لكنه بقي مضطجعاً متدثراً بعباءته الفرو.

لحظةَ دفع يونسُ البابَ انفتح مصراعاه فسبقته في الدخول أمواج من الهواء حملت رسالة الثلج بكامل برودتها إلى العجوز المضطجع بجانب موقده فاستيقظت الجمرات الغافية المتدثرة بلحاف رقيق من الرماد لتعلن حضورها المشتعل.

استوى العجوز جالساً ومسح بيده اليمنى على وجهه ثم قبض على لحيته ومشطها بأصابعه محدقاً خلال النافذة إلى الهواء المسكون بحكايات باردة. جلس يونس، حيث كان يجلس كل مرة حين يكتب وبقي صامتاً منتظراً ما يقوله الترجمان العجوز الذي طافت بحيرة وجهه بالحكاية فقال:

– اكتب يا يونس. لا وقت لدينا نضيعه.

– وماذا أكتب يا مولاي؟

– أين وصلنا في الحكاية؟

– وصلنا يا مولاي إلى عبارة "البهجة الغامضة التي كانت تتراقص في عينيها السوداوين كلما تلاقينا".

– هذه إستر! أجل يا يونس. لقد كانت في عيني إستر السوداوين كسنونوتين بهجةٌ تتراقص وسرٌّ دفين لم أكتشفه إلا ساعة رحيلي.

– أي رحيل يا مولاي؟

– رحيلي إلى بلاد الفرنجة لأصبح ترجماناً.

لم يعقب الخادم يونس، أحضر الدواة، فتح قفلها الصغير، رفع الغطاء وغمس القلم في المحبرة ثم شرع ينشر أمامه ورقة جديدة وكتب ما أملاه المترجم العجوز:

هيأ لي أبي أسباب السفر إلى إيطالية وهو لا يعلم ما بقلبي المشدود بأمراسٍ ألفٍ إلى إستر، من غصص وآلام وشوق. مانعتُ في البداية وأنا آتيه بحجج واهية لا تقنع فأراً حتى غضب ذات نهار وقال:" أنت ستذهب إلى روما سَلْخَ هذا الشهر أو غُرَّة الشهر القادم ولا أريد أن أسمع منك بعد الآن إلا ما يتعلق بسفرك إلى هناك".

لم يبق أمامي إلا أن أصارح أمي بقصتي مع إستر. وفي ظهيرة يوم قائظ، وكان قد بقي لسفري أسبوع واحد، استدعيت كل شجاعتي وقلت لأمي: "أنا أحب إستر يا أمي وأريد أن أتزوجها ولن أذهب قبل أن تخطبوها لي".

جحظت عينا أمي وحدّقت فيَّ مليّاً ثم بقيت لبرهة قصيرة دون أن تنبس ببنت شفة. وفجأة صرخت كالملسوع: " إستر اليهودية!!"

نعم يا أمي، إستر اليهودية.

ابنة المبيض إسحاق اليهودي الأنطاكي؟

يا أمي المبيض إسحاق أرمني وليس يهودياً.

كلهم سواء، ليسوا من ملتنا وديننا.

يا أمي....

لا تجادل يا ولد واشكر ربك أن والدك ليس هنا، وإلا لجعلته يصفعك صفعة تطير بك إلى رمل الشاطئ.

ولماذا سيصفعني؟ وهل صفعه أبوه لما تزوجك؟ هل كنت من ملة أبي؟

قلت من شدة قهري بنبرة ساخرة.

لم تجبني أمي.

كانت هذه عادتها القديمة: تفاجئ محاورها بالصمت في منتصف الحديث، وهي تقصد أن الموضوع انتهىK وأن مزيداً من الكلام هراءٌ و"طحنٌ للماء" بتعبيرها الطريف.

لم تكن أمي سارة امرأة قاسية القلب، لكنها كانت صارمة عنيدة. حتى إن أبي التاجر رشدي، وهو سليل أسرة شركسية عريقة خدمت في الفرقة الانكشارية من الجيش العثماني طويلاً، كان يخشى بأسها ويهاب معاندتها إن استقر رأيها على أمر ما.

وكان يستشيرها وينزل عند حكمها في كل شيء إلا أمور تجارته. وحين أنهت أمي محادثتنا تلك على ذلك النحو القاطع أيقنت ألا أمل من إعادة الكرّة أو محاولة الإقناع.

أصبح كل شيء جاهزاً فأعدت أمي حقائب السفر، حيث ملأت بعضها بالألبسة، وبعضها بما لم أعرفه وحقيبة خشنة الجلد كانت على شكل صندوق ملأته برغلاً وعدساً وبعض الجبن وما تيسر من الطعام المخلل. كان أبي يضحك كلما رآها تأمر الخادمة أن تملأ هذا الكيس أو ذاك بالمؤونة حتى قال لها ذات مرة:

– أتظنين أن ابنك ذاهب إلى البادية؟ إنها بلاد الفرنجة يا امرأة. بلاد تفيض لبناً وعسلاً.

– لكنها لا تفيض برغلاً وعدساً.

ردت أمي بجديتها وصرامتها المعهودة وسخريتها الجارحة حين تريد

الاستبداد بأمر ما واستمرت ترتب الحقائب حتى بلغت سبعاً بين صغيرة وكبيرة.

قال والدي حين رأى الحقائب مرصوفة بعضها بجانب بعض بصوت خافت:

يلزم لنقل هذه الحقائب قافلة كاملة.

فردت أمي وهي تدفع بقدمها حقيبة نشزت عن مثيلاتها:

لن يحملها الولد على كتفه يا رجل. الحوذي الكردي سيأخذها إلى ميناء الإسكندرون. ومن هناك ستأخذها السفينة إلى قبرص. ومنها ستبحر سفينة أخرى إلى روما التي تفيض لبناً وعسلاً.

رددت أمي الكلمتين الأخيرتين مقلدة نبرة أبي في سخرية ظاهرة فاستشاط أبي غضباً وقال:

– وهل سيأخذها حوذيك الكردي إلى الميناء لوجه الله أم صدقة على روح أمواته؟ أم أن السفينة التي ستقلع من الإسكندرون ملكي وملك أبي؟ أتعرفين كم أدفع لهذا الحوذي الكردي كل شهر؟

أتعرفين كم يأخذ حمالو المراكب عن كل رطل من الأمتعة؟

أتعرفين كم فرسخاً تبلغ المسافة من هنا إلى ميناء الإسكندرون شمالاً! أتعرفين..

– أووووووه. عدت إلى حساب الدراهم. قل لي ماذا ستفعل بها إن لم تكن لخدمتك وخدمة ولدك؟ أتعرف تاجراً مات فدفنه ورثته بكفن له جيوب؟ أتعرف مالاً بقي بحوزة صاحبه أبد الدهر؟ تدفع بولدك الوحيد ليسافر إلى بلاد بعيدة وربما لن نراه إلا بعد خمس سنوات، ثم تبخل عليه بدفع أجور نقل

أمتعته؟ أتعرف..

استفهاما "أتعرفين" و"أتعرف" صارا سجالاً بين أمي وأبي الذي لم يكن أمامه إلا أن يعلن هزيمته قبل أن يأويا أخيراً إلى فراشهما ويقول أبي بلهجة متوددة:

لا عليك يا امرأة. كل شيء سيجري كما تشتهين.

*****

الفصل الثاني

I- مِلْحُ الرحيل

كطائر الرُخّ العملاق فرد الليل جناحيه على حين غرة فوق القرية الصغيرة الوادعة، حيث كان مترجمٌ عجوز يملي على خادمه الفتى سيرة حياته، فامتلأت غرفة المترجم بالظلمة التي سرعان ما بددها اشتعال الذاكرة ووميض الحبر.

الخيال سراجٌ منيرٌ، يحرق ريش النسيان.

قالها العجوز بتؤدة وهو ينظر من خلال النافذة إلى جناحي الليل يخفقان في باحة داره، ثم أمر الخادم الفتى قائلاً:

أشعل السراج يا يونس ففي الذاكرة بقايا حكايات لهذه الليلة.

أمر مولاي.

ملأ يونسُ السراجَ زيتاً وقصَّ رأس الذبالة الذي اسودَّ احتراقاً، ثم أشعله ووضعه في المشكاة وعاد لمجلسه وظلّه المترامي يسبقه.

تنهد العجوز حين اطمأن إلى أن ظلمة حجرته خرجت لملاقاة الظلمة في الخارج فقال ليونس:

أأحضرت الفخاخ؟

بَهَرَ السؤالُ الفتى يونسَ، وظنَّ أن مولاه الترجمان العجوز قد أخطأ التعبير فاستفسر:

أية فخاخ يا مولاي؟

أشرقت في ضوء السراج ابتسامةٌ على وجه الترجمان الذي قرأ سطور الحيرة على وجه خادمه الألباني فقال:

الحكايات طرائد يا يونس. الحكايات طرائدٌ فخاخُها القراطيس.

صدقت يا مولاي.

أبريتَ القلم إذاً؟ أملأتَ المحبرة؟ أأحضرتَ القراطيس وصقلتها؟ أعاينت الرمل في المرملة؟

نعم يا مولاي. فعلتُ. وقد اخترت من الورق ما جلبتَه معك من روما، أعني الورق الإفرنجي وأعدت المصري إلى الخزانة كما أمرتني.

وكذلك السمرقندي والبغدادي أعدهما إلى الخزانة، فهذان صنفان لا أريدهما ورقاً لسيرتي.

لقد أبقيت هذين الصنفين لنفسي، إن قبل مولاي.

لا بأس يا يونس خذ ما شئت لنفسك. والآن سطِّر على بركة الله:

غادرنا، أنا ووالداي، القرية مع شروق شمس يوم الجمعة لنصل مدينة أنطاكية قبيل أذان الظهر. أصرت أمي على أن أصحبها إلى مقام حبيب النجار بنية التوفيق في السفر، فتركنا والدي هناك وهو يقول للحوذي الكُردي:" إن

انتهيا فخذهما إلى الخان" ثم استدرك والتفت إلينا بعد أن كان قد ولاّنا ظهره: " لا لا. بل ابقوا هنا وسألحق بكم بعد انتهاء الصلاة". كنت حزيناً. تألمت كثيراً حين أصرت أمي على أن نسافر يوم الجمعة. حاولت أن أقنعها بتأجيل السفر يوماً أو يومين. كنت أريد أن أودع إستر بعناق أو قبلة، لمسة، همسة أو حتى نظرة أخيرة لعل وجهها يكون آخر ما أراه في قريتي فيعلق بذاكرتي ويؤنسني في غربتي المجهولة. انضم أبي إلى صف أمي وصار يسأل: "ما بال الولد يصر على أن نؤجل السفر إلى السبت؟" قلت له قبل أن تجيب أمي: "قرأت في بعض الكتب أنه من أراد سفراً فليسافر يوم السبت، فلو أنَّ حجراً زال عن جبلٍ في يوم سبتٍ لردَّه الله عزَّ وجلّ إلى مكانه". ضحك أبي وقال: "ليس كل ما تقرؤه في الكتب صحيح الإسناد يا بني. الأيام كلها أيام الله". لم أجبه. خشيت إن أنا أوغلت في إصراري أن تفشي أمي سرَّ حبي وهو ما لا طاقة لي بمواجهة أبي به خجلاً ورهبة. عللت نفسي بأمل أن ألتقي إستر في الطريق حين نستريح في إحدى القرى أو الخانات وهو ما لم يحصل.

أمرتني أمي بالجلوس، حيث كان أبي يجلس بجانب الحوذي الكردي وسرنا إلى مقام حبيب النجار وأنا أتقي شمس الظهيرة بيدي. فجأة لمحت عربة مقبلة. عربة هي توأم عربة إسحاق الصفار. لم يسمح لي الغبار الذي أثارته عجلاتها المسرعة أن أتبين ملامح تلك الفتاة الجالسة بجانب سائق العربة حتى حين مرت بموازاتنا. أكانت تلك إستر؟ أكان ذاك إسحاق الصفار؟ أكانا يتوجهان إلى قريتنا؟ أستعرف إستر أنني هاجرت إلى بلاد الصلبان؟ هل نظرت إليَّ تلك الفتاة أيضاً؟ أسئلة علقت كالغصص المرة في حلقي ولا تزال. بقيت ملتفتاً إلى الوراء حتى غابت العربة المسرعة التي كان يحفها الغبار على وقع

سياط ألهبت قلبي قبل أن تلهب كِفْلَيْ الحصان الهزيل بَرْكَلْ.

شعر الحوذي الكردي باضطرابي دون أن يلمح اضطراب قلبي الذي عصف به غبارٌ أثارته العربة آنَ مرت آنفاً فسألني: "أتهابُ الجلوس في الأمام يا فتى؟ لا بأس ها قد وصلنا".

لم أجبه.

وصلنا بعد هنيهة قصيرة إلى المقام الغارق في جلال ورهبة تفرض الخشوع على الزائرين الذين تنوعت عقائدهم ومللهم ونحلهم كما هي متنوعة غاياتهم ومقاصدهم وآلامهم وعللهم، فكان اليهود كما النصارى والمسلمون والنصيرية يتبركون به ويشعلون الشموع فيه ويتضرعون إلى الله عنده سائلينه حاجاتهم. كان نسيم بارد منعشٍ يلف المقام حين جلست أمي قرب الضريح المغطى بقماش أخضر عليه آيات مذهبة من سورة يس وصارت تلهج بالأدعية والصلوات. رأيت في النور الذي غشيَ المقامَ ظهيرتئذ دمعتي أمي تنحدران على وجنتيها الذابلتين مثل أجمل لؤلؤتين جادت بهما قيعان الأبحر فغمرتني لرؤيتهما موجة أسىً وجزع، جزع الخوف من الغربة وأسى على حزن الأم ومفارقة إستر. وأنا غارق في تلك الموجة مسترسل في مشاعري لم أجد نفسي بعد لحظات إلا وقد جثوتُ بجانبها أجهش بالبكاء.

شعرت، بعد تلك النوبة من البكاء، بخفة سَرَت في كياني كالنسيم العليل الذي كانت أنامله تبارك آنذاك تلك الأرجاء المضمخة بعطر قدسي. زالت موجة الأسى ببركة المقام، أو هكذا ظننت، فنهضتُ قبل أمي التي نهضت في إثري وهي لا تزال تمسح الضريح بيديها بضراعة أشعرتني ولأول مرة بضعفها الكبير وقلة حيلتها.

XXX

في طريقنا إلى خان جعفر باشا، غير البعيد عن مقام حبيب النجار، قالت أمي -التي أحزنها دنو موعد سفري- لأبي:" يا رشدي دعنا نذهب إلى كنيسة العزيز باول أيضاً. أريد أن أنذر شمعة للولد بنية التوفيق في السفر". قال أبي ممتعضاً: "ليأخذكم بوزان إليها. أما أنا فسآخذ قسطَ راحةٍ وأنتظركم في الخان". لم تمر دقائق حتى كنا على باب الخان. أنزل الحوذي الكردي أمتعتنا: حقائبي السبع وصُرراً لأمي، وحملها إلى داخل ذاك الخان الجميل الفسيح الذي كان في وسطه حوض تتوسطه نافورة تنثر الماء على زهور قرنفل وشجيرات ياسمين أحاطت بالحوض الرقراق كالسوار. تبعه أبي الذي ما إن سار خطوات حتى التفت إلينا وخاطب أمي قائلاً: " يا سارة عودي أنت وابنك سريعاً، فلقد أرهقنا الجوع". وغاب في ظلال شجيرات البرتقال التي ازدانت أغصانها المورقة بثمار كأنها قناديل مضيئة. بعد قليل عاد الحوذي الكردي لينطلق بنا إلى كنيسة العزيز باول شمالاً. كانت الشوارع والأزقة شبه خالية إلا من بعض المارة الذين تأخروا في الخروج من المسجد الكبير بعد صلاة الجمعة. قرقعت عجلات العربة وهي تسير بمحاذاة نهر العاصي الذي عكست مياهه أشعة شمس الظهيرة فبدا مثل مرآة مستطيلة طويلة يتماوج فيها الضوء. نسمات رخية قادمة من جبل النور كانت تخفف من وطأة الهجير الأنطاكي حين وصلنا بعد لحظات إلى باب الكنيسة. نزلت أنا وأمي ودخلنا الكنيسة التي كان يعلو برجها صليب حجري ضخم. استقبلنا القندلفت الشاب بترحاب كبير وسار معنا إلى المذبح، حيث أشعلت أمي شمعتها وصارت تناجي أمام صوَر وأيقونات كثيرة بهرني جمالها وإتقان تصويرها

وشغلتني عن مناجاة أمي وتوسلاتها الكثيرة. وكم دهشت حين رأيت أمي عند خروجنا تفتح هِمْيانَها الحريري الأزرق وتنفح القندلفتَ الشاب دراهم معدودات. ونحن نخرج لنستقل العربة، قالت لي أمي وكأنها قرأت حيرتي: "الله كبير يا ولدي، كبير ولا يسعه بيت واحد". وقبل أن نستقل العربة خرج إلينا من الكنيسة مسرعاً رجل في زي الرهبان المارونيين الذين كنت أراهم في زياراتنا النادرة إلى أنطاكية وفي القرى الجبلية التي زرتها في طفولتي. وما إن وصل إلينا حتى عرفته.

كان ذاك الراهب بولس صديق أبي في حلب. قال لأمي بعد أن سلّم علينا بلطف: "ليبارككم الرب. قولي لأخي رشدي بيك إن بولس سيغادر الليلة إلى الإسكندرون فانتظروه في الميناء عند السفينة الهولندية. إن لديَّ أشغالاً كنسية تمنعني من اللقاء به اليوم في الخان" ثم ابتسم في وجهي وقال لي: "أنا سأرافقك إلى روما فلا تقلق". شكرته أمي بينما قفزتُ إلى المقعد بجانب الحوذي الكردي الذي ساط حصانه متجهاً بنا إلى الخان من جديد. كان أبي قد أعد لنا مائدة عامرة: طاساتُ مخيضٍ تعلوها رغوة بيضاء كثيفة كالثلج ولحمُ دجاجٍ مشويٍّ وبصلٌ أخضرُ وفجلٌ وأرزٌّ كأنه زبد البحر آن تستقبلُ موجَه صخورُ الشاطئ.

رائحة الدجاج المشوي والبخار الذي تصاعد من الأرز آنذاك وما تناثر حول المائدة من بصل أخضر كعروق الزبرجد وفجل كأنه كُرات ياقوت، كل ذلك ذكرني بموائد حلب حين انتقلت أسرتنا إليها وأنا في العاشرة. لم أكن قد رأيت مدينة كبيرة قبل ذلك. بهرتني حلب قبل أن تبهرني موائدها، ظلال الأزقة الضيقة وبيوت الحجر الأبيض، والقلعة العالية الجميلة والخانات

والأسواق والمساجد الكبيرة والكنائس. هناك اشترى أبي منزلاً يقع بين مسجدي الخسروية والبهرمية قريباً من الجامع الكبير. أتذكر أن مئذنة مسجد البهرمية، ويسميه فريق من أهل حلب مسجد بهرام باشا، كانت قد سقطت عام وصولنا إلى حلب، أي عام أحد عشر ومئة وألف للهجرة، وكان الناس يقولون إن العام عام سقوط المآذن وتشييدها بسبب ترادف العدد واحد، وهو ما أوَّلَه العامَّةُ بالمآذن، أربع مرات. كنت أرى البنائين يرفعون حجارة المئذنة الجديدة على سقالات تحيط بما يبنون كأنها سلالم إلى السماء. ولم تمض شهور قليلة حتى شمخت مئذنة رشيقة جديدة كحرف ألف عملاق صعد في السماء أربعين ذراعاً.

بقينا ثلاثة أعوام في حلب، درست فيها علوم الخط والقراءة، ومبادئ النحو والصرف والمنطق والحساب والقرآن وبعض الحديث. كان أبي مشغولاً بتجارته في القراطيس يقضي جل أوقاته في الأسواق والخانات، ويسافر أحياناً إلى الرها وأنطاكية وغيرهما ولا نكاد نراه أنا وأخواتي إلا لماماً. في السنة الثانية انتهيت من دراسة القرآن في المدرسة الخسروية فانتقلت إلى مسجد بهرام باشا الذي لم يكن يبعد عن بيتنا إلا مئتي خطوة لأدرس علوم النحو والصرف والمنطق.

كان رجل من بلاد الفرنجة اسمه مارتين، كوسج أزرق العينين يدرس العربية عند إمامها، وكنت أنا وأترابي نراه من نوافذ حجراتنا يردد ما يقوله الشيخ بلكنة الإفرنج فنضحك بصوت خافت ونقلده في النطق فينهرنا معلمونا ويضربوننا بعصي الرمان الرفيعة ضرباً غير مبرح تأديباً لنا، حيث كان للفرنجة حرمة كبيرة في حلب وسائر هذه البلاد.

ولما دخلنا في العام الرابع ساءت أحوال أبي كثيراً وأوشكت تجارته أن تبور. تكدس الورق الذي كان يأتيه من جهة بغداد وسمرقند في المخازن ولم يعد يرى له مشترين. كنا نراه حين يعود إلى البيت مساء حزيناً كئيباً، يلعن الخواجة مارتين الذي ابتلع سوق الورق كما كان أبي يقول. تبين فيما بعد أن الخواجة مارتين ذاك، هو الكوسج الإفرنجي ذو العينين الزرقاوين الذي كنت أراه يتعلم العربية في مسجد البهرمية، وظهر أنه كان تاجراً شاباً جاء من بلاد الألمان فأغرق أسواق حلب بالورق الإفرنجي االفاخر القادم من مرسيلية وصار يبيعه بأسعار متهاودة لا يمكن للتجار الآخرين منافسته فيها. بارت تجارة أبي، فباع البيت وما تكدس من ورق في المخازن وكان لا بد أن نغادر حلب فودعناها فجر يوم في مقتبل الربيع عائدين إلى قريتنا هذه.

بقينا في القرية إلى أن تحسنت أمور أبي فأراد أن ينقل بيتنا إلى أنطاكية لكن أمي رفضت قائلة: "إن المدن الكبيرة شؤم. سنبقى في هذه القرية وفي هذا البيت. وإن شئت فسافر متى تشاء لأجل تجارتك".

أصبح أبي يتردد على أنطاكية كل شهر ويبقى أياماً هناك. ثم رأيناه يسافر إلى مدن بعيدة أخرى ليعود إلينا محملاً بالهدايا والتحف النفيسة. لكنه كان يقول لأمي كلما آب من سفر: "يا سارة إن القرى لا تلائم التجار. إنني أرهقت نفسي بالسفر والترحال. أطيعيني ولنذهب إلى أنطاكية ولك عليَّ أن نأتي كل صيف إلى القرية نصطاف فيها حتى الخريف".

لكن أمي لم تطعه وبقي الحال على ما هو إلى يوم سفري.

شعر الترجمان العجوز، حين جاء بالحكاية إلى ذاك المقام، أنه استطرد فيها فقال لخادمه الفتى يونس وكأنه يعتذر:

الاستطراد آفة المصنفين.

لا بأس يا مولاي. لقد استمتعت وأنا أدوّن حكاية الحوذي الكردي ومارتين الإفرنجي.

ألم أقل لك إن الحكايات طرائدٌ فخاخها القراطيس؟

ألا أنعم بها من طرائد وفخاخ يا مولاي الصياد.

لكن أتظن حكاية الحوذي الكردي انتهت هنا؟ أم تظن أن مارتين الإفرنجي لم يعد له مكان في حكاياتي؟ سيعودان يا يونس، سيعودان. نحن لم نُحْكِم فخيهما هذه المرة. هرب الطائران.

ثم ضحك العجوز فتبعه يونس ضاحكاً بأدب.

كان الموقد لا يزال مشغولاً بمطاردة غربان الظلام واصطيادها بسهام لهبه المشتعل بينما أكمل الليل نصب كل فخاخه السوداء خارجاً متأهباً كعادته لصيد الأحلام. أما الترجمان العجوز فقد تنهد وقد سرّتْهُ صفة الصياد وتناول إبريقاً صغيراً كان بجانبه، فشرب جرعة مما فيه، ثم عاد إلى نول الذاكرة ينسج عليه زرابي الحكاية من سدى الخيال ولحمة الزمان، فقال ليونس:

فلنكمل الحكاية يا يونس. سأروي لك عن ملح رحيلي الذي ذررته على جراح الحب، اكتب يا يونس:

ما إن شعشع نور صباح السبت الأخير من شهر حزيران، حتى غادرنا أنطاكية، بعد أن بتنا ليلة في خان جعفر باشا، وتوجهنا إلى ميناء الإسكندرون. كانت الطريق المؤدية إلى بلدة الإسكندرون تعج بتجار قادمين من الميناء في قوافل تحمل بضائع من البندقية وجنوة ومرسيلية وبلاد المغرب، وآخرين قادمين من حلب والرها ذاهبين إلى الميناء بقوافل صغيرة من بضع جمال

وخيول تحمل بضائع الشرق كالحرير والتوابل والصمغ والأشنان والقلع والقهوة إلى بلاد الصلبان، وكانت تصحب هذه القوافل عساكر إنكشارية لحمايتها من قطاع الطرق الذين كانوا ينزلون من قرى في جبل موسى وحتى جبل الأكراد فيغيرون على قوافل التجار الفرنجة وينهبونها حين لا تصحبها الإنكشارية. وصلنا قبل غروب الشمس من نفس اليوم إلى قرية بيلان الواقعة قبل الإسكندرون بفرسخين فنزلنا للاستراحة في خان فسيح جميل كان معمار آل عثمان الشهير الخواجة سنان قد بناه من الحجر الأبيض للسلطان سليمان القانوني خلال سفره إلى مصر قبل قرن ونصف من الآن.

كان السفر قد أرهقنا جميعاً.

ذهب الحوذي الكردي ليربط الحصان بَرْكَلْ ويعلفه في الإسطبل ويحرس الأمتعة، أما نحن فقد استأجر والدي لنا غرفة مريحة بفرش وثيرة ونافذتين تطلان على الغرب رأيت من خلال إحداهما الشمس وهي تهبط سلالم الشفق لتغيب في البحر القريب.

وما إن نلنا قسطنا من الراحة حتى صعدت ثعابين الظلام السوداء تلك السلالم والتفت على الدنيا فأوقد أبي السراج بينما خَلَدت أمي الواجمة الحزينة إلى النوم وهي تتمتم: "ساعات طويلة من السفر ترهق حتى جبل الأقرع". كلام أمي نقش ابتسامة حزينة لمحتها على وجه أبي في ضوء السراج الشحيح. لم تمض دقائق حتى كانت أمي غارقة في النوم.

كنت ساهماً شارد الذهن أفكر طوال الوقت في إستر وشعورها حين تسمع خبر رحيلي إلى بلاد الصلبان. ولما لاحظ أبي وجومي أدناني منه وقال بحنان نادر: " لا تحزن يا بني. أنت الآن شاب راشد وبإمكانك الاعتماد

على نفسك. وأنا أعرف أن الطريق التي اخترتها لك شاقة، لكنك ستجد كل المتعة حين تسير فيها وتصل أخيراً إلى نهايتها الجميلة". خالجني حزن غامر لشعوري أن أبي لا يعلم ما في قاع قلبي من حب غريق وأمل تفترسه الحيتان فأوشكت أن أقص عليه حكايتي مع إستر اليهودية. وكم صُعِقْتُ حين قال أبي وهو يغمزني بعينه: "أعلم بقصتك مع إستر أيها الشقي".

كدت أذوب خجلاً. ارتبكت كثيراً وعرت قلبي رعشةٌ شديدة فأطرقت برأسي دون أن أرد، فتابع أبي: "أنا لا أعترض على كونها يهودية، كما تفعل أمك، يا ولدي.

لكن ولأنها فتاة لا نعرف لها أباً ولا أماً وقد تبناها صفار أرمني فهي لا تصلح لك وليست من مقامك ولا من مقام أبيك. الناس مقامات يا ولدي، وأبوك تاجر له سمعة طيبة وذكر حسن. سنودعك غداً ثم نتجه إلى قرية أَرْسُوزَ لنخطب لك ابنة خالتك الأرسوزية سلمى، وعندما تؤوب من سفرك بعد أربع سنوات إن شاء الله تعالى، سنحتفل بعرسك وعودتك معاً ونقيم أفراحاً تصبح حديث القوافل من الآستانة حتى بلاد فارس".

ما كان ينفع في تلك الليلة أن أقول يا أبتِ إن الحب لا يعرف المقامات فهو المقام الأرفع، ولم يكن ينفع أن أبين له أن العشق نار كنار الصفَّارين يجلو كل قلب يغشاه فيزيل صدأه ويجعله لامعاً كالفضة. لم يكن ينفع أن أقول له يا أبتاه إن الهوى شريعة تنسخ الشرائع كلها. وما كنت أجرؤ أن أقول له إنني لم أحبب في حياتي ابنة خالتي سلمى من قرية أرسوز.

كان عزائي الوحيد هو أنني مقبل على سفر ربما ينسيني آلام حبي ويبعدني قليلاً عن الحياة التي يرسم والداي ملامحها لي. بقيت واجماً حائراً فواصل

أبي كلامه: "ستقلع سفينة هولندية صباح الغد إلى قبرص. ومن قبرص ستقلع سفينة إيطالية إلى روما. لا تخش شيئاً فلقد هيأت لك ما يجعل سفرك إلى روما سهلاً مثل سفرك من قريتنا إلى ساحل البحر.

الراهب الماروني بولس الذي من جبل لبنان سيرافقك من هناك إلى روما. سألتقيه الليلة. إنه سيرعاك مع فتيان آخرين حتى تنتهي من تعلم الإيطالية واللاتينية وإتقانهما على أصولهما. لقد يسرت لك كل شيء".

قالت أمي، وهي التي ظنناها غارقة في النوم، حين جاء أبي على ذكر الراهب: "أوووه" ثم استقرت جالسة في سريرها ووضعت يدها على رأسها كعادتها كلما شعرت بأنها نسيت شيئاً مهماً. ثم استدركت قائلة: "لقد التقيناه في الكنيسة. هو يسلم عليك ويقول: إنه سيغادر الليلة وسنلتقيه غداً عند الميناء". ثم عادت للنوم.

أما أنا فلقد بقيت واجماً وصرت أحدّق في ذبالة السراج المشتعلة، كانت فراشتان تتراقصان حول اللهب، تعلوان وتنخفضان وتحومان حول النار بحركات تشبه الرقص، تدنوان منها ثم تبتعدان، تختفيان في الظلام ثم تظهران من جديد بأجنحة هشة ترفرفان بصمت تحاولان الولوج في النار. مرت هنيهة وأنا أراقب تلك الرقصة المجنونة حتى احترقت أولى الفراشتين فسقطت في زيت السراج.

بقيت الثانية تحوم حول النار غير آبهة بما آل إليه مصير سابقتها، ولم تمض دقائق حتى احترقت هي أيضاً وسقطت بجانب الأولى جثة غاطسة في الزيت. تذكرت إستر وحضنها الفردوسي، قبلاتها النارية وجسدها المشتعل سُمرةً كحقل من القمح، سنونوتي عينيها وكرز شفتيها، طراوة النهدين ودفئهما،

لذة اللمسات وسحر الهمسات. ثم تخيلت صدمتها ودهشتها وخيبتها حين تسمع خبر سفري إلى بلاد الصلبان، وتخيلت أنها ستتزوج رجلاً آخر وتهبه جسدها الفاتن ذاك. تخيلت وتخيلت حتى ضاق بي الخيال ذرعاً وقلت في سري: "آه أيها الحب، أيها الجرح الذي ينثرون عليه ملح الرحيل."

ثم دمعت عيناي.

حين نظر والدي إلى وجهي، نهرني بلطف وخفوت وقال: "إياك أن تضعف يا ولدي. الدموع لا تليق بالرجال. أنت في مقتبل الشباب، والحياة ليست نهر عسل تخوض فيه، كما أنها ليست مروجاً تتقافز فيها خراف سعادتك وجداؤها، بل إن فيها مفازات وجبالاً صعبة المرتقى، وفيها وديان وشعاب وعرة أيضاً وعليك تعلم الصعود فيها وتجربة حزنها قبل سهلها. كان جدك، والدي – رحمه الله – قائداً للانكشارية وقد ترك لي من المال ما أغناني، بل ألهاني عن العلم والأدب.

لقد كنت شغوفاً بالكتب في بداية الشباب مثلك وصرت أحلم في أن أصعد متن مركب من مراكب البنادقة فأذهب إلى بلادهم لأتعلم لغتهم وأطلع على أحوال بلدهم وأنقل ما في كتبهم، لكن زواجي ثم انشغالي بالتجارة ترك ذلك حلماً يراودني بين الفينة والأخرى. لم يهبني الله إلاك ذكراً يا بني. أتعرف مبلغ سعادتي إذ أرى نفسي فيك؟

أتعلم أنك إذ تسافر أسافر عبرك إلى تلك البلاد؟

إنك تجدد شبابي يا ولدي.

ستتعلم اللغات هناك وتعود إلينا مترجماً يشار لك بكل بنان، وحين تذوق لذة اللغات الجديدة وعذوبة الترجمة منها ستنسى كل النصب الذي لاقيته

والأهوال التي تجشمتها في سبيل مبتغاك".

"بل مبتغاك" كدت أقول له ذلك، لكنني بقيت على صمتي لهنيهة أخرى. ثم، وقبل أن يذهب كلٌّ منا إلى فراشه، قلت بثقة: "سيكون الأمر كما تشاء وترضى يا أبتاه. لن أخيب لك ظناً". تنفس أبي الصعداء وأمرني بالذهاب إلى فراشي ثم أطفأ السراج.

ما إن وصل المترجم العجوز إلى عبارة (ثم أطفأ السراج) حتى ولولت ريح عاتية في الخارج. ريحٌ صرصرٌ هبطت من ذرى جبل موسى لتطفئ السُّرُجَ المشتعلة في تلك القرية الصغيرة الوادعة على ساحل البحر، القرية التي فاجأها ثلج نادر لم يشهد الناس مثيلاً له منذ عقود طويلة. لم يلاحظ العجوز وخادمه أن تلك الريح بدأت تكنس ما في السماء من غيوم نسجتها أنامل ريح سابقة. أما في الداخل، حيث كان الضوء يكنس ذرات الظلمة، فقد طفقت فراشتان تتراقصان حول لهب السراج الذي كان يونس قد أشعله أولَ الليل.

فراشتان أيقظهما دفء الحجرة من سباتهما الطويل فسبقتا بنات جنسهما وخرجتا من شرنقتيهما الملتصقتين بعمود في السقف وسارعتا تشمان رائحة الحياة وتستمتعان بالنور الوهَّاج، إذ يسرد حكاياته في أذن الليل، فراشتان وحيدتان ذكّرتا الخادم الحصيف ومولاه العجوز بفراشتين سبق ذكرهما في الحكاية التي سردها الترجمان قبل أسطر معدودات احترقتا وغطستا في زيت السراج. قال العجوز وهو يحدّق فيهما بحزن:

" ضُمَّ قراطيسك يا يونس وارفع الدواة.

لا أريد أن تنتهي ليلتي هذه بموت فراشتين".

أسرع الفتى يونس إلى القراطيس فضمها، وأغلق دواة الحبر ثم جفف رأس

اليراع بخرقة بالية، وسأل مولاه: "ألا أعدّ لك بعض العشاء يا سيدي؟".

أجاب العجوز: "لا أشتهي الليلة شيئاً. سأنام باكراً فقد أرهقتُ نفسي بالسرد وأرهقتك بالتدوين وأرهقنا هاتين الفراشتين بالطواف حول السراج الوهّاج".

ثم تمدد في فراشه، وقال بصوت واهن: "أطفئ السراج".

II- الحوذي الكردي

حين أشرقت الشمس صباحاً، ولم تجد غيمة واحدة تؤنس شروقها الخلاب، كان الخادم الألباني يونس لا يزال نائماً في فراشه يحلم بمساجد وكنائس وأنهار وبحر وثلوج وسنونوات تحتسي الماء من المزاريب على عجل ثم تطير صوب الجبال النائية. أيقظه صوت سعالٍ أجش في باحة الدار فاستغرب كيف أن الترجمان قد استيقظ قبله!

وحين خرج إلى الباحة رأى مولاه العجوز متدثراً بجبة الفرو محدقاً في سماء صافية لا أثر فيها للغيم.

طاب نهارك يا يونس.

طاب نهارك يا مولاي.

أيقظك سُعالي؟ أليس كذلك؟

كذب يونس، بل استحياً أن يُقِرَّ لمولاه أن السعال أيقظه، فقال:

بل أيقظتني الريح يا مولاي.

الريح! الريح التي أيقظت السماء من غفوة الغيوم؟ ظننت أن سعالي أيقظك. انظر.. لقد كنست ريحُ جبل موسى كلَّ الغيوم. هاهي السماء كأنها مقلاة خرجت من عند صفار.

والشمس نار موقدة في الأتون.

جرى ذلك الحديث بما فيه من بلاغة مصطنعة متكلَّفَة تبادلاها قبل أن يقول الترجمان لخادمه الرشيد يونس: "هل تناولت فطورك يا غلام؟" أجابه يونس وهو لا يزال يحدق مستغرباً في السماء الصافية: " لا يا مولاي. ليس قبل أن تتناول أنت فطورك".

هيِّئ لنا إذاً ما تيسر، وتعال إلى حجرتي لنكمل تدوين الحكاية.

كانت ريح الليلة الماضية قد محت سطور الغيم من قرطاس السماء فبدت زرقاء تلمع مثل سطح بركة معلقة. لكن الثلج النادر الذي داهم القرية ليلة أمس مثل لص، كان لا يزال في القرية، متشبثاً ببعض الأغصان، وفي زوايا بعض الشوارع، وعلى أسطح بعض المنازل.

لكنه لم يكن على كل حال ذلك الثلج الذي يتحدى الرياح ويدعوها للنزال، فلقد كانت شجيرتا النارنج والليمون قد خلعتا عن أغصانهما الثوب الثلجي وتبرجتا فظهرت مفاتن أوراقهما الخضراء اللامعة في ضوء شمس الصباح بينما كانت شجرة الكينا الكبيرة تنفض عن أوراقها ما تبقى من أثر اللص الناصع، تعينها في ذلك مداعبات همجية من أصابع ريح شمالية أتقنت منذ الأزل كنس الغيوم وحلج الثلوج.

وضع يونسُ القراطيسَ أمامه، بعد أن تناول الفطور مع مولاه الترجمان،

ثم رتبها وحمل آخر قرطاس كان يدوّن فيه ليلة البارحة ما أملاه الترجمان العجوز، فقال بصوت فيه أثر من نعاس:

وصلنا يا مولاي إلى عبارة: تنفس أبي الصعداء وأمرني بالذهاب إلى فراشي ثم أطفأ السراج.

ابتسم العجوز وقال: ثم أطفأ السراج! أأنا أمليتها هكذا؟

نعم يا مولاي.

ليكن كذلك، فأنا لا أتذكر جيداً من أطفأ السراج ليلتئذ، أبي أم أنا!

أأمحوها يا مولاي؟

سأل يونس وهو يمعن في العبارة المشكلة فقال الترجمان وعلى محياه بقايا من ابتسامته السابقة:

لا يا يونس. لا تمحُ شيئاً، ففي ترجمة حياتي آثار حكايات تمتطي الذاكرة وخيالٌ يتجلبب بالحقيقة وحقائق تتدثر بالخيال. رقّم ما سأمليه عليك الآن.

الأمر لك يا مولاي. على بركة الله.

بدأ العجوز يملي على خادمه النبيه ما سماه آنفاً "خيالاً يتجلبب بالحقيقة وحقائق تتدثر بالخيال" فقال:

استيقظت باكراً فرأيت أبي وأمي قد استيقظا قبلي وأعدا فطوراً خفيفاً تناولناه بصمت كان يكسره بين الفينة والأخرى صوت عربات تعبر الشارع ثم ما لبثت الشمس أن طلعت ونشرت بساطها الذهبي فامتلأت الدنيا بالحركة وعجَّ الخان بدبيب أقدام الرائحين والغادين. استحثنا أبي على الإسراع وقال موجهاً كلامه لي متحاشياً عيني أمي الساهمتين: "علينا أن نصل إلى الميناء قبل الساعة السابعة. ينتظرنا الراهب الماروني هناك".

أما أنا فقد خرجت قبل أبي وأمي إلى باب الخان قائلاً سأساعد الحوذي في ترتيب الأمتعة فرأيته غافياً في ظل العربة، ملتحفاً عباءة خفيفة متوسداً نعليه.

لأول مرة لفت هذا الحوذي الغريب وغفوته انتباهي.

كنت أراه كثيراً على هذه الحال واعتدت عليه حتى صرت لا أتخيله إلا بجانب عربته إما يغفو متوسداً نعليه أو يرفع المخلاة أو يضعها وهو يحدث حصانه بالكردية. والأمور هكذا دوماً: تألف شيئاً أو إنساناً ولا تجد فسحة من الوقت لتفكر في قصته، لكن موجة من الفضول تغزو ساحل تفكيرك فجأة وتدفعك إلى البحث والتقصي وطرح أسئلة تراكمت لديك تبتغي من ورائها معرفة ما حولك.

كنا قد سميناه الحوذي الكردي ولم يكن مسموحاً لنا، نحن الصغار، أن نستفسر عن اسمه الحقيقي أو قصته، بل لم يخطر على بالنا ذلك أبداً. كان رجلاً دائم الحزن متجهماً ساهماً واجماً لا يتكلم إلا لماماً. وإن تكلم فمع حصانه بالكردية: "حصاني أيضاً كرديٌّ مثلي".

كان يمازحنا أحياناً نادرة حين ننظر إليه مشدوهين مستغربين حديثه الغريب. وكان أحياناً يغني بصوت حزين أغاني طويلة بلغته الكردية الحلوة تلك التي ما كنا نفهم منها سوى ما نسمع فيها من كلمات مألوفة بالعربية مثل "أمان، عشق، عاشق، محبوب، غربة، بحر، يا ربي" ما عدا ذلك كانت أغانيه ألغازاً بمغاليق ثقيلة ينوء بحملها خيالنا الغض الطري. أسراب من الأسرار كانت تحلّق في عينيه عالياً، تبحث عن غصن أخرس لا يفشي سراً يحط عليه. ولقد أدركت أن وراء جبال صمته بيداء من الحكايات الحزينة، فكنت أسأله ببراءة: "عمي الحوذي لماذا لا تتكلم؟" وكان يجيب: " الكبار لا يتكلمون

كثيراً" فكنت أرد عليه: "لكن أبي يتكلم" فكان يجيب: "أبوك لم يكبر بعد" ثم ينتزع ابتسامة صغيرة وينقشها على وجهه الحزين. أما والداي فما كانا يردان على استفساراتنا عن هذا الحوذي الغامض الذي لم يكن يخيفنا لما في وجهه من ملامح حزينة تمحو رهبة الغموض.

"إنه رجل كردي من سهل سروج، من أطراف بلدة البيرة من أعمال الرها". هذا منتهى ما عرفناه عن الرجل ومنبته واكتفينا به.

هاه. هل انتهيتما؟

صوت أبي القادم من الخان تتبعه أمي بتثاقل انتشلني من لجة التفكير في الحوذي الكردي المتوسد نعليه على مقربة منا.

وقبل أن أجيب بأسىً ظاهر "إنه نائمٌ"، نهض الحوذي الكردي من غفوته واستقر جالساً على وقع استفسار أبي ذي النبرة العالية. خطف نعليه، لبسهما، ارتدى عباءته على عجل ثم أسرع إلى المخلاة فرفعها ومسح رقبة الحصان بحنان مواسياً إياه وكأنه يعتذر له عن رفع المخلاة. ضحك أبي وقال: "ما أرقَّك يا بوزان!".

حينذاك فقط عرفت أن اسم الحوذي الكردي بوزان فبدا لي ذاك الاسم موغلاً في الغرابة، كان ذلك اسماً لا يشبه ما تعودنا عليه من الأسماء الكثيرة الغريبة في أنطاكية وما حولها من قرى وبلدات تسكنها ملل ونحل كثيرة: بوشناق وأروام وبنادقة وفرنجة، يهود وأرمن، ونصيرية وأكرادٌ وشراكسة وكثيرون آخرون ألفنا أسماءهم الغريبة، إلا هذا الرجل فقد زادني اسمه الذي سمعته لأول مرة في ذلك الصباح الباكر حيرة فيه وزاده في نظري غموضاً على غموض وكدت أقول لأبي: "ما قصة بوزان يا أبي؟"

لكن الحوذي الكردي، أعني بوزان، خطف لجام الحديث مني فخاطب أبي برقة بالغة قائلاً: "يا رشدي بيك لو فتحت قلبي واطلعت عليه لرأيت الرِّقة رابضة في حقوله مثل قطاة من سهل سروج". "لا أشك في ذلك يا بوزان" ردَّ أبي ثم سأله:

هل نقلت الحقائب إلى العربة؟

فأجابه بوزان بثقة بالغة: "كل شيء على ما يرام. غفوتي الخفيفة عادة قديمة يا رشدي أفندي، ولا تعني أنني أهمل واجباتي. اركبوا من فضلكم". جوابه الظريف الصريح هذا زرع الابتسامة حتى على وجه أمي الغارق في الأسى.

كانت الشمس قد ارتفعت قدر رمح في السماء. أخذت مكاني، بعد أن استأذنت أبي، في المقعد على يمين الحوذي بينما بقي هو يواسي أمي في الخلف مع الأمتعة وانطلقت العربة.

ولقد استأذنت أبي في الجلوس بجانب الحوذي لئلا أرى أمي التي ما فتئت تذرف الدمع على غير عادتها. كان ذلك يحزنني كثيراً ويخيفني، بل ويشعرني بقرب موت أحدنا. قلت لنفسي: "فليكن هذا البحر وهذه الجبال وسماء بلادي آخر ما أراه وأتأمله قبل رحيلي وليس عيني أمي اللتين تذرفان الدمع".

كانت المسافة بين الخان الذي بتنا فيه ليلتنا وبين الميناء قريبة ولم تستغرق سوى نصف ساعة من الزمن أو أكثر قليلاً. لكن نصف الساعة ذاك كان كافياً ليسرد فيه الحوذي الكردي قصته الحزينة عليَّ غير مبالٍ بصمتي وشرودي.

أنا أعلم بقصتك يا خوارْزى[1]، وأعرف أن حب إستر اليهودية كاد يطحن قلبك.

---

1 – خوارزى تعني ابن الأخت بالكردية ويخاطب بها الكُردُ أبناء الأقوام الأخرى تحبباً.

فاجأني الحوذي الكردي بوزان بهذا الكلام وهو يسوط حصانه مستحثاً إياه على الإسراع.

وما إن بدأ الحصان بَرْكَلْ يعدو بنا، حتى بدأ بوزان يسوط حصان خياله أيضاً ويعدو بي في دروب حكايته فقال:

"كنت في مثل عمرك يا خوارزى، أكبر أو أصغر بعام. كانت أسرتي فقيرة وكنت أعيلها برعيي للأغنام. كنا نسكن بلدة صغيرة، بل لنقل قرية كبيرة اسمها سروج تابعة لمدينة الرُّها تقع في سهل فسيح يسميه أهل ذلك المكان دَشتا بَرَازان لأن القبائل البرازية الكردية تستوطن أكنافه. وهذا السهل برية واسعة الأرجاء خضِرةٌ نضِرةٌ ذات ينابيعَ وسواقٍ تهيج ربيعاً، وهي تمتد من الشمال من تخوم الرُّها إلى حرَّانَ شرقاً إلى البيرة على شاطئ الفرات غرباً، وأما جنوباً فتمتد تلك البرية حتى تلامس حدود ولاية الرقة.

كنت أسرح بالأغنام في تلك البرية الفردوسية أيام الربيع، تجذبني رائحة الكلأ ويخطفني إليها خرير الجداول، وكنت أقنع من هذه الدنيا بالقليل القليل لأنني كنت فتى خلي البال لا أعرف ما هو الهم إلى أن أخذتني الأقدار ذات يوم إلى عين ماءٍ نمير يُسمى كانيا عَرَبان ويعني بلغتنا الكردية نبعَ العرب. كان يوماً من أيام الربيع خرجت فيه من سروج فجراً قبل أن تنهض الشمس من فراشها السماوي الشرقي. حملت زوادتي وإبريق ماء وسقت غنمي إلى الجنوب. لم تمض ثلاث ساعات من الزمن حتى ساقني ظمئي وفراغ إبريقي من الماء إلى نبع كانيا عَرَبان الذي كانت أصابعُه المائية تداعب حصىً قذفتها تلة ترابية كبيرة رابضة شرقي النبع. كان أفرادٌ من بدو قبيلة قيس العربية قد وردوا النبع ونصبوا خيامهم على حافته الشرقية الناشزة مثل ربوة صغيرة.

لم أكن أدري أن هذه الخيام التي نصبها البدو العرب للتو شرقي النبع فخاخٌ نصبها القدر لقلبي يا خوارزى.

وللقلوب أقدام عمياء تتعثر بفخاخ تسمى الحب. القلوب تشبه كثيراً طيور القطا. أتعرف طائر القطا يا خوارزى؟ إنه نوع من الطيور الحمقاء تضع أنثاه بيضها أينما كان.

وكذلك القلب يعلق بأيٍّ كان فلا وقت للحب كي يسأل أين ينصب خيمته ويمد أطنابه! وتقول أغانينا يا خوارزى إن الحب داءٌ وبيل لو أصاب الجبال لدكّها وجعلها ركاماً فكيف بقلوب البشر! إنني أقسم بثلاثين جزءاً من القرآن أن ذلك التل كان في الأصل جبلاً شاهقاً فناله عشق الينبوع فاضمحل حتى دنا من الأرض وكاد أن يفنى.

أنا أعرف أنك أيضاً ذقت حلاوة الحب وتجرعت مرارته. أعرف أنك قبضت على جمره ومشيت على شوكه، وأنك سرت في ضوئه وضعت هائماً على وجهك في ليله. لكنك والله لم تخض في لُجّه كما خضتُ وما تُهْتَ في مفازته كما تهتُ. لم تعمِك دياجيرُه ولم تجرفك أعاصيره فدعني أسرد لك بعضاً مما جرى لي.

لقد وقعت يا خوارزى في هوى فتاة عربية من تلك القبيلة، كانت واقفة بباب خيمتها شاردة اللب تنظر للنبع حين شعرتُ بصاعقةٍ تخطف قلبي. ألشرح لك ماذا حلَّ بي؟ أجزم بأنك لا تحتاج إلى شرح فلقد رأيتك ذات مرة تنظر خلف إستر حين مضت عربة أبيها الصفّار الأرمني، كنتَ تقطر عشقاً حتى إنني كدت أسمع نبض قلبك، عيناك صارتا نبعين من لهفة. آه يا خوارزى، آه من ينابيع اللهفة. عند ذلك النبع، كانيا عربان، شعرت بأن ناراً

حلّت في هشيم قلبي فجعلته رماداً. وأقسم بثلاثين جزءاً من القرآن بأنني وجدت للفحة تلك النار في قلبي لذة عظيمة. لقد كان ذلك الحب قدراً من الله سبحانه قذف كرة قلبي أمام صولجانه الثقيل.

تقدمت بخطوات بطيئة صوب باب الخيمة حيث تقف ميّاسة. أي نعم يا خوارزى، كان اسمها مياسة. مياسة بنت مشلب القيسي. غزالة حرّان وظبية مضارب بني قيس.

لو رأيتها يا خوارزى، لو رأيتها ورأيت الخال الذي على عنقها. تقدمت أكثر وبيدي إبريق الماء الفارغ. تقدمت حتى وقفت أمامها محدقاً في عينيها. والحب يا خوارزى عجيبٌ أمره، يجعل الجبان صنديداً والشجاع رعديداً. ولقد تقدمت صوب مياسة غير هياب ولا وجل، ولم أخش حينها أن يراني أحد من أبناء عشيرتها فيحدث ما لا يحمد عقباه، تقدمت حتى اختفى كل شيء عن ناظري. لم أعد أرى تلك التلة الترابية ولا النبع ولا الخيام ولا الماء المتدفق ولا الحرشف البري بتيجانه البنفسجية وأشواكه المتحفزة، وغاب عن سمعي ثغاء الغنم وهسهسة حصى الساقية وحفيف أوراق شجر الحور وأنين القصب النامي حول النبع. في تلك اللحظة يا خوارزى لم أعد أرى سوى عيني مياسة.

هل لك أن تسقيني ماءً؟

قلت ذلك وأنا لا أزال أحدق كالأبله في أجمل عينين خلقهما الله. ابتسمت مياسة، بل ضحكت ضحكاً خفيفاً وقالت بلهجة البدو الجميلة: "ويح أمك يا غريب، النبعة وراك! ما تشوفها؟". صحوت من سُكري والتفتّ ورائي فإذا بالنهر الصغير يجري في دعة بينما أسراب صغيرة من السمك تجول خلال

الماء الذي كانت جدائي وخرافي تتناطح متنافسة على وروده. ارتبكت والله. نعم يا خوارزى ارتبكت. لكنني سرعان ما تماسكت من جديد واستجمعت كل شجاعتي وقلت برقة متكلفة: "الظمأ في قلبي يا فتاة. أعندك ماء لقلبي الصادي؟" لا أدري من أين جئت بذلك الكلام صباحئذ يا خوارزى! إن العشق يُنطقُ الحجر الأصمَّ شعراً وأنا ما كنت أقسى من حجر أصم.

إنت مجنون شَيْ؟ محموم؟ تريد ماي تاريه وراك.

قلبي المشتعل يريد ماء. قلبي محموم يا حلوة.

روح الله يهديك. روح بعيد. كُردي وأعوج اللسان.

نهرتني مياسة القيسية. استهزأت بي وصدتني تلك الغزالة البدوية. لكن هل أنت تعرف يا خوارزى أن صدود المحبوب نفخٌ قوي في نار العشق؟ نعم يا خوارزى، العشق نارٌ وجمرٌ، الوصالُ يطفيه والصدُّ يُذْكيه. وأنا، حين صدتني البدوية الحلوة مياسة، هاجت نيران حضرة النبي إبراهيم الخليل كلها في قلبي. أمسكتُ بيدها وأنا أرتجف، لا خوفاً والله يا خوارزى، بل عشقاً، هل جربت رجفة العشق؟ بلى، أنت جربتها. أليس كذلك؟ أمسكت بيدها وحاولت أن أضمها إلى صدري وأخطف قبلة. لكنها دفعتني بشدة وقالت وقد اكفهر وجهها: "ورب الكعبة أصيح عليك وأجمع كل من في المضارب. إنت مخبول! روح يا كُردي في سبيلك روح، روح بعيد".

تراجعت إلى الوراء قليلاً وعاد إلي بعضٌ من الرشد الذي كدت أفقده كلَّه في تلك الآونة. ابتعدت رويداً رويداً فيما اختفت مياسة داخل الخيمة. تعجبت من جسارتي فجلست على صخرة سوداء في النهر وصرت أضرب بعصاي الماء والصخرة بالتناوب، ضربة على الماء وأخرى على الصخرة فيما كنت

أسترق النظرات بين الفينة والأخرى إلى باب الخيمة التي اختفت فيها مياسة. استمتعت بالرذاذ الذي صار يتطاير جراء ضرب الماء وتلمع حباته في ضوء شمس الضحى كقلائد من جمان فتركت ضربة الصخرة وصرت أضرب الماء فقط حتى سمعت صوتاً خشناً ورائي يسال:

مَنْهو إنت وإيش تِعمل هِنا؟

التفتّ ورائي، كان أحد فرسان بني قيس متقلداً سيفه يرمقني بغضب وهو على صهوة جواده. هنا خفت. أي نعم والله يا خوارزى خفت، لماذا أكذب عليك؟ أقسم بثلاثين جزءاً من القرآن بأنني صرت أرتجف كالقصب النامي حول النبع، لكن ليس كما ارتجفت عشقاً. رجفة الخوف تختلف عن رجفة العشق. لرجفة العشق لذة تُشعِرُ المرء بالخفة والرغبة في الطيران أما الخوف فلرجفته طعم الرماد والشعور بأن عفريتاً من الجن يجذبك إلى باطن الأرض ويمنعك من الحركة ويجعلك ثقيلاً كأنك كيسٌ من الملح. لقد خفت أن يكون الفارس القيسي قد رآني أتحدث إلى مياسة فلم يكن أمامي سوى أن أنهض لأجيبه عن سؤاله.

لكنني فوجئت بالبدوية الفاتنة مياسة تخرج من باب الخيمة وتقول: "يا ولد عمي هذا راعي كردي جاي يسأل على راعي من ديرته".

هزرت راسي موافقاً وقلت: "نعم، أحد رعيان قبيلتنا سبقني إلى هذه التلة".

قال الفارس المتجهم باقتضاب:

"إنه هناك منذ الصباح".

وأشار إلى جبل في الجنوب تعلوه شجرة توت يتيمة. كان ذلك جبل مِشْتَنور وكان غير بعيد عن النبع، مسير نصف ساعة مع الغنم لا أكثر. وكنت قد

صعدته كثيراً مع أغنامي وجعلتها ترعى اللحلاح والقيصوم والخليلوك وغيرها من النباتات التي تنمو في ذلك الجبل ربيعاً. لم يكن أمامي إلا أن أغادر النبع. ارتوت خرافي وجدائي، ولكن ما ارتويت أنا. أي نعم والله يا خوارزى ما ارتويت من عيني مياسة، بل زدت ظمأً على ظمأ. جمعت الأغنام وسقتها إلى مشتنور بينما بقي قلبي الظامئ معلقاً بباب الخيمة، حيث دخلت مياسة فتبعها الفارس القيسي بعد أن ترجل وربط الجواد عند باب الخيمة. كاد قلبي ينخلع في تلك اللحظة. أتراهما ارتطما بقلبي!

يقولون إن الغيرة نار. نعم يا خوارزى، هي كذلك عند بعض العاشقين، لكنني، حين دخل الفارس القيسي الخيمةَ وراء مياسة، شعرت بالغيرة برِّيةُ شوكٍ مشيت عليها حافياً حتى وصلت رأس الجبل. أي يوم كان ذلك اليوم! عشقت فيه، ونلت قرب الحبيب ولحظاتٍ من الوصال، بعد ذلك تذوقت الصدود ثم أكلتني الغيرة!

وأنا أرتقي الجبل بأغنامي، بعد أن زال خوفي قليلاً، صرت ألتفت ورائي متعجباً من مياسة التي خرجت من الخيمة لتجيب عني وتنقذني من ثقل سؤال ابن عمها وحيرتي في الجواب.

تُرى هل أحبتني أم أنها أشفقت عليَّ حين رأتني غِرّاً غريباً وفتى طائشاً! وما الذي سيفعله ابن عمها وقد تبعها إلى داخل الخيمة؟ وهل كان ذاك الرجل ابن عمها أم عشيقاً غريباً من مضارب قبيلة أخرى؟ هل هما زوجان أم حبيبان أم خليلان؟ ولماذا كانت المضارب خالية إلا منهما؟ آه يا خوارزى! يا لقسوة براثن الأسئلة في خاطر المرء حين تفرُّ الأجوبة كالظباء.

وصلت مع غنمي وأسئلتي تلك إلى قمة الجبل، حيث شجرة التوت التي

كساها الربيع بخضرة زاهية بينما ازدانت أغصانها بأقمشة علقتها نساء عواقر ورجال عقيمون يطلبون ذرية، وعشاقٌ بائسون يرومون عطف الحبيب ومرضى يأملون البُرْء والشفاء. تلك الشجرة كنا نسميها دارا مِرازان أي شجرة الآمال، وقد روى لنا المسنون كيف أن الناس، حين تموت شجرة، يزرعون شجرة أخرى في مكانها لئلا يبقى ذوو الحاجات بلا أمل في هذه الدنيا. تركت أغنامي تسرح ثم قطعت من ثوبي خرقة صغيرة وربطتها بغصن نضير بنية أن يلين الله قلب مياسة ويجعلها تتعلق بي. أخيراً جلست مستنداً إلى جذع الشجرة ومن هناك صرت أنظر إلى مضارب بني قيس عند التلة الترابية التي كان النهر يجري عند سفحها متجهاً إلى الجنوب مثل أفعى تلمع في وهج الظهيرة.

تجاذبت مع الرعيان أطراف الحديث ونحن نتناول ما في مزاودنا من جبن وخبز، كنت متردداً في إفشاء ما جرى لي لكنني آثرت الكتمان خوفاً. والحب يا خوارزى كتمانه قهرٌ وإفشاؤه ذلٌّ ونسيانه مستحيل. بقينا هناك نلهو ونستبق ونلعب ونركض وراء الخراف الضالة والجداء القاصية نجمعها ونضمها للقطعان حتى مالت الشمس وانحدرت صوب الغرب فانحدرنا نحن أيضاً بأغنامنا واتجهت أنا صوب الشمال لأمرٍّ من جديد بجانب التلة دون أن أجرؤ على الوقوف ثانية خوفاً من ذاك الفارس. لكن والله يا خوارزى صار قلبي مثل طبل في عرس، أقسم بثلاثين جزءاً من القرآن بأنه كاد يخرج من صدري لشدة خفقانه حين مررت بجانب خيمة مياسة. ولكن ليس من الخوف والله. لا أبداً.

هذه المرة امتزج لديَّ الفرحُ بالحزن والفضولُ بالخوف والرجاءُ باليأس

حتى تكوّن عندي إحساس لا أقدر على وصفه سوى أنه كان إحساساً غامضاً ساعدني على أن أصل أول الليل إلى سروج دون أن أشعر بتعب الطريق.

ذلك الربيع، صار قلبي كمأةً، أتعرف الكمأ يا خوارزى! كان عشق مياسة وابلاً أصاب قلبي فأنهضه مثل كمأة من أعماق هدأة الطفولة. صرت مذّاك أستيقظ فجراً وأسوق القطيع صوب الجنوب حتى أرد كانيا عَرَبان وأحظى، إن جاد حظي، بنظرة من مياسة أو كلمة منها ولو كانت هجواً أو أشم رائحة المسك إذ يفوح من شعرها الأسود المسترسل حين أمر بالقرب منها محاذراً أعين الرقباء والواشين.

هذا كان دأبي كل يوم لمدة شهرين إلى أن مررت يوماً بتلك المضارب من جديد. لا والله لم تكن مضارب تلك التي مررت بها فلم أجد خيمة ولم أسمع نأمة. لم يكن ثمة سوى طلول دارسات، بعرٌ تناثر هنا وهناك وأثافيّ تحيط برماد وآثار أوتاد وعظام. أين رحلوا؟ سألت نفسي.

أين رحلوا؟

سألت النبع الثرثار فلم يجبني. أين رحلوا؟

سألت التل الذي كان جبلاً فأفناه العشق، ولم يجبني. أين رحلوا؟

سألت الأثافي والطلول الدارسات.

ران صمت ثقيل على المكان ثم ساقتني قدماي إلى البقعة التي كانت خيمة مياسة منصوبة فيها قبل أيام خلت. صرت كالمجنون أدور حول نفسي وأصيح مياسة، مياسة، مياسة! صحت وصحت وصحت حتى شعرت بأن الكون كله يصيح ورائي ويردد اسمها الجميل معي.

وحين أعياني الصياح صعدت التل حتى صرت على قمته وصرت أنظر

شرقاً وغرباً وجنوباً فلا أرى أثراً لقافلة تسير أو مضارب قبيلة تلوح من بعيد، هنالك أيضاً ناديت بكل ما آتاني الله من قوة في الحنجرة. ولما هدّني البحث وخاب ندائي نزلت إلى الأسفل ثم صعدت من جديد ونزلت ثم صعدت حتى بلغ بي التعب مبلغاً عظيماً وسقطت قرب صخرة عند رأس النبع مغشياً عليَّ.

أواااااااااااه يا ربي!

ماذا فعلت بي تلكما العينان الساحرتان؟

ماذا فعلتا بي يا خوارزى؟

لم أشعر، حين فتحت عينيَّ إلا وأنا في بيتي في سروج. كان الوقت ليلاً وضوء السراج ينير وجه أمي الحزين ودموعها بينما كان أبي يجلس بصمت ورهبة بجانب رجل يقرأ الرقى والتعاويذ وينفخ في وجهي. كنت ما أزال أردد اسم مياسة حين سمعت الرجل، عرفت فيما بعد أنه شيخ من الرها اسمه بَرْكَلْ، يقول لوالدي: " ابنك هذا أصابه مس من الجن. إنه وقع في هوى جنية ذهبت بعقله". انتفضت كالملسوع وقلت: "أنا أحببت مياسة القيسية ومضارب قبيلتها كانت عند كانيا عربان، أي جنية تتحدث عنها؟".

نهرني أبي وقال: "أطع كلام الشيخ بَرْكَلْ ولا تقاطعه".

نظر الشيخ إلى أبي وقال فيما يشبه الهمس: "اسم الجنية التي أفقدته عقله مياسة. إنها أنثى لذلك ما عليك إلا أن تذبح أنثى حيوان أسود لنرش عليه من دمها فيطيب بإذن الله".

قام أبي فذبح دجاجة سوداء من دجاجاتنا وصار الشيخ يضع كفه في دمها ثم يرشه على وجهي ويتمتم بكلام ما سمعت مثله قط. لا أدري كيف مضت تلك الليلة! غالبني النعاس جين بدأ الشيخ يقرأ آيات من القرآن بصوت شجي

ويمسح وجهي الذي ملأه رشاش الدم حتى غرقت في النوم.

صباح اليوم التالي أردت أن أذهب كعادتي للرعي. استيقظت فوجدت أبي قد سبقني إلى الحظيرة ولما رآني نهرني وأمرني بالنوم قائلاً: "أنا سأقود القطيع إلى مراعٍ قريبة. إبق في البيت مع أمك". تظاهرت بطاعته لكنني لم أبق في البيت.

بل خرجت بعد أن اطمأننت إلى ابتعاد أبي ويممت وجهي صوب كانيا عربان وفعلت كما فعلت في اليوم السابق وجرى لي ما جرى في اليوم السابق ثم تكرر ذلك عدة مرات حتى خشي أبي عليّ من الجنون المطبق فربطني إلى عمود وسط البيت.

ساءت حالي كثيراً حتى نصحته أمي أن يأخذني إلى منزل الشيخ بَرْكَلْ الذي رقاني أول مرة.

فأخذني إلى هناك حيث ربطني الشيخ مع اثنين آخرين إلى حلقة معدنية في عمود كبير وصار يجلدني، كلما فرغ من جلد الآخرين، صباحاً ومساءً سبعة أيام بلياليها حتى سلخ جلدي وهو يأمر الجن بالخروج من جسمي وترك روحي.

تكرر هذا الأمر كثيراً وصار أبي يأخذني كلما رأى تغيراً في حالي إلى تكية ذلك الشيخ الجلاد بَرْكَلْ حتى هربت ذات يوم إلى قرية قريبة. كانت شهرة جنوني قد سبقتني إليها وإلى القرى الأخرى فأعادني أهلها إلى بيتنا في سروج ليأخذني أبي إلى الشيخ مرة أخرى، حيث كوى جسمي بسفود حامٍ وهو يرغي ويزبد ويدعو الجنية العنيدة مياسة إلى الخروج من جسدي.

صرت كلما هربت إلى قرية لم يشأ أيٌّ من أهلها أن يؤويني في داره، بل كان

كلما رآني أحد أسير وحيداً بعيداً من البيت يمسك بيدي ويعيدني إلى سروج، حيث كان أبي يأخذني من جديد لمنزل الشيخ بَرْكَلْ حتى فقدت عقلي بعد عام.

صرت أقص هذه القصة التي سردتها عليك الآن على كل من أجتمع به، رجلاً كان أو امرأة، طفلاً أو شيخاً.

حتى أصبح أهل بعض القرى يسمونني مجنون مياسة وسماني آخرون بوزان المجنون. وكم رشقني الأولاد بالحجارة وهم يصيحون: انظر يا بوزان الجن وراءك. وأحياناً كثيرة كانوا يهتفون: أهرب أهرب يا بوزان، الشيخ بركل وراءك. لم يكن أمامي بدٌّ من الهرب وهجر بلادي وأهلي ففعلت ذلك بعد عامين وقمت ذات فجر فخرجت خلسة من الدار وتوجهت مع قافلة كانت قادمة من ديار بكر إلى حلب ومن حلب ساقني القدر إلى أنطاكية قبل أعوام طويلة".

ما إن وصل الترجمان العجوز بقصة الحوذي الكردي إلى هذا المقام حتى ذكَّرته آلام مفاجئة داهمت سلامياته بأنه أثقل بالإملاء على خادمه فسأله: "أنخلد إلى الراحة يا يونس؟ أراك تعبتَ". رد الخادم وقد استهوته قصة الحوذي الكردي ودفعه الفضول إلى سماع بقيتها قائلاً:

لا يا مولاي. أنا لم أتعب، فلنكمل القصة ثم نستجم قليلاً.

حدّق الترجمان العجوز في النافذة التي أتاحت له رؤية نور شمس الضحى وقد ملأ باحة الدار ثم بدأ يملي على خادمه من جديد:

حين انتهى الحوذي الكردي بوزان بقصته إلى هذا المقام، وقد أخرسني على طول الطريق حديثه الشيق الذي ما انقطع لحظة واحدة، وصلنا نحن أيضاً

إلى الميناء الذي رأيناه يضج بالحركة بالرغم من أن الصباح كان باكراً فكان الحمالون يسيرون من المخازن باتجاه البحر بظهور محنية عليها حقائب شتى. كما لاحت سفن كثيرة بعضها مشرعة تتهيأ للإقلاع وبعضها راسية تحاول الأمواج الصغيرة تسلقها فيما ارتفعت أصوات كثيرة واختلطت لغات من ممالك الدنيا كلها. قال الحوذي الكردي:"يا خوارزى لقد وصلنا". قلت له: "لكننا لم نصل إلى نهاية قصتك! هلّا أكملتها يا خال!" فقال وهو يأمر الحصان بَرْكَلْ بالوقوف:" الحياة قصة لا تنتهي أيها الفتى.

سأقص عليك ما جرى لي حين وصلت إلى حلب فأنطاكية وكيف شفيت من جنوني بعد أن تؤوب من سفرك إن شاء الله".

توقفت العربة وتوقف الحوذي عن سرد بقية القصة لكن الأسئلة لم تتوقف في بالي. قلت له مستعجلاً:

" ولماذا لم تكن تكلم أحداً وتحدثه بقصتك هذه؟"

فقال: "سأشرح لك كل شيء حين تعود، أعدك بذلك يا خوارزى".

ثم ضحك وقال وهو يقفز إلى الأرض ويضع المخلاة أمام الحصان: "حصاني بركل يعرف القصة كلها".

قفزت أيضاً ثم مشيت إليه حتى وقفت أمامه محدقاً في عينيه، كانتا تبدوان مثل مركبين أشرفا على الغرق.

حدّق هو أيضاً في عيني ثم قال بحزن: " قد يكون وطنك جرحاً يا خوارزى، لكن الرحيل عنه ملحٌ، ملحٌ يزيدك ألماً".

غرق الترجمان العجوز في الصمت، بعد أن أملى هذه الجملة، وقد أعياه السرد دون انقطاع. أحس بملوحة شديدة تغزو فمه. طلب من خادمه كأس

ماء. ناوله يونس كأساً مترعة فشرب ما فيها دفعة واحدة ثم قال بأسى ظاهر: "نعم يا يونس، الرحيل عن الأوطان ملحٌ يجعلك تذوقه ظامئاً. الغربة ظمأ يا يونس، والوطن ماء".

ولما انتهى من الكلام مسح فمه بردن ثوبه الأسود، ثم أمر يونس بضم القراطيس والقلم والمرملة، وغفا كعادته في ضحى كل نهار.

III- فتيان اللغة

مع اقتراب الظهر خلت سماء القرية من كل أثر للغيوم. فظهرت شديدةَ الزرقة صافيةً كقبة من اللازورد. ذرع يونس باحة الدار جيئة وذهاباً من باب حجرته إلى باب الدار وهو يمتع ناظريه بما تبقى من آثار ثلج البارحة على أغصان شجرة الكينا الكبيرة في وسط الدار وتحت شجيرتي النارنج والليمون في الجنوب. كان عدد من أطفال القرية قد خرجوا يتراشقون بما تبقى من الثلج في الساحات وحول جذوع الأشجار. وكلما كانت نسمةُ ريح تهب، كانت غيمةٌ من غبار ثلجي تثور وسرعان ما تتحول إلى أقواس ناصعة البياض تلتف كموج البحر وتدور لتهبط ثانية إلى الأرض وتتحد مع ما عليها من طبقة ثلجية هشة خفيفة.

كان يونس غارقاً في تأمل المشهد الجميل حين سمع نداء مولاه المترجم العجوز: "يونس. يونس" فحمل حزمة من الحطب وأسرع إلى الحجرة وما

إن دخل حتى ألقى بحطبتين في الموقد الذي كانت جمراته غافية ملتحفة بالرماد. سرعان ما ثارت داخل الموقد زوبعة صغيرة أثارت الرماد الذي كان يخفي الجمرات الغافية ثم ارتفعت ألسنة اللهب التي بدأت تتراقص في حركة تحاكي حركة أقواس الثلج البيضاء التي كان يونس يتأملها قبل لحظات خارجاً.

أتعرف من زارني في الحلم يا يونس؟ أبواي – رحمهما الله.

خيراً – إن شاء الله – يا مولاي.

كان أبي يحمل شمعة مطفأة في يده بينما تنظر إليه أمي بصمت. فجأة هبت ريح قوية فاشتعلت الشمعة. عادت البهجة إلى وجه أمي. لكنهما غابا عني بعد لحظات ولم أعد أرى سوى دخان أسود يلف المكان.

كرر يونس وهو يخرج القلم ويمسح رأسه من أثر الحبر السابق ويستعد للتدوين:

خيراً يا مولاي. منامك خير – إن شاء الله.

لقد انجذب يونس إلى الحكاية ولم يعد يشعر بأي تعب حين يدوّن تفاصيلها. أضحت الحكايات تمتعه وتنسيه الوقت وثقل مروره. فلم يبدِ اهتماماً بمنام رآه مولاه في غفوة الضحى. كان يهمه ما سيسرده المترجم العجوز من وقائع جرت له وصارت تجذب خادمه النبيه إلى القراطيس التي سماها فخاخاً. ولما رأى المترجم العجوز عدم اكتراث من خادمه بالمنام، قال وهو يمسح لحيته بيده اليسرى:

أنكمل الحكاية يا يونس؟

أجل يا مولاي. فلنكملها على بركة الله.

على بركة الله. دوِّن إذاً:

في الخامسةَ والنصف صباحاً وصلت عربتنا إلى الميناء. كانت الشمس قد ارتفعت خلفنا من الأفق الشرقي حتى عمَّ نورُها البر والبحر والجبال التي تحف بالإسكندرون من جهات ثلاث. كانت ثمة جمال وخيول وحمير وبغال وعربات كثيرة وصناديق وجوالق وحمالون وتجار يأتون ويروحون. أشار أبي إلى سفينة كبيرة راسية وقال لأمي: "هذه بلاك بيرل". حدقت أمي في السفينة التي كانت الشمس قد أضاءت صواريها الثلاث الشاهقة والحبال التي التقت عليها الأشرعة وسألت أبي:" كم يوماً ستمخر في البحر؟" رد أبي بثقة بالغة: "بضع ساعات لا أكثر. سيكون ولدك اليوم في قبرص يا سارة".

سألت أمي بنبرة يشوبها الغضب: "أسألك عن الرحلة إلى روما يا رشدي". رد أبي بهدوء:" ليس أكثر من خمسة عشر يوماً. لا عواصف في تموز". سكتت أمي قليلاً ثم عادت لتسأل أبي:" وأين بولس الراهب؟" قال أبي بثقة:" سيأتي بلا شك. سيأتي الآن. ألم يقل لك إنه سيسبقنا إلى الإسكندرون؟". كنت أصغي السمع إلى حديثهما الذي شابه قليل من التوتر بينما كان الحوذي الكردي بوزان يضع الحقائب السبعة على الأرض. اقتربت الساعة من السابعة، فبدأ التجار الفرنجة يصعدون إلى السفينة التي بدأ البحارة ينشرون أشرعتها ويشدونها استعداداً للرحيل. نادانا أحد البحارة وأمرنا بالصعود قائلاً إن النوتية سيرفعون المراسي ويحلونها بعد دقائق.

ازداد والداي توتراً وهما يشاهدان السفينة موشكة على الإقلاع دون أن يظهر أثر للراهب الماروني بولس. "ماذا سنفعل الآن؟" سألت أمي، فرد أبي بغضب:" لن أرسل الولد وحده يا سارة.

إطمئني". كنت كالأخرس أراقب المشهد الغاضب المتوتر دون أن أنبس

بحرف. كنت أتمنى ألا يأتي الراهب في موعده فتقلع السفينة وتتشاءم أمي فتجبر أبي على أن يعيدنا إلى القرية ويحجم عن قصة إيفادي إلى روما. في تلك اللحظات الحبلى بالترقب لاح لي طيف إستر من خلال ضباب خفيف كان يتهادى على سطح البحر.

كانت إستر ترمقني بنظراتها المعاتبة من عينيها الشبيهتين بسنونوتين وتسألني لماذا تتركني؟ لم أستطع أن أجيبها. صرت حتى في خيالي أخرس لا أحير جواباً. تسارعت الأفكار في تلك اللحظات التي ترقبنا فيها جميعاً ظهور الراهب الماروني. تمنيت لو كانت إستر معي، تسافر إلى حيث أسافر فنعيش مثل طائرين تجمعنا سماء واحدة وعش واحد.

تمنيت لو أرى إستر، حين أصعد إلى سطح السفينة، قد سبقتني إليها فأنسى أمي وأبي وقريتي. لم يكن يشغلني شيء في تلك اللحظة سوى إستر وفضولي العميق في معرفة كيف ستستقبل خبر رحيلي.

لكن حبل أمنياتي لم يكن طويلاً. فلقد ظهر فجأة الراهبُ الماروني بولس ببرنسه الأسود وقلنسوته المطرزة بصلبان ذهبية صغيرة ووجهه البشوش ولحيته المشذبة بعناية فائقة. كان يحمل كشكولاً على ظهره وبجانبه شابان في مثل عمري ما لبث أن انفصلا عنه وتوجها إلى السفينة. وما إن وصل إلينا حتى اعتذر عن تأخره قائلاً: "شغلتني أمور كنسية. اعذروني جميعاً".

ضحك أبي، وقد انشرح صدره، وقال ممازحاً: "ألا تنتهي أمورك الكنسية أيها الراهب المبارك بولس؟ كدنا نفقد الأمل في مجيئك" ابتسم الراهب الماروني وقال: "لا يفقد الأمل إلا الهراطقة والملحدون. فليبارككم الرب سبحانه".

سأل أبي: "هل جهزت أوراق الفتى يا أخي بولس؟" فرد مبتسماً: "هي

معي. لكن يجب ألا يتكلم ابنك مع أمناء الميناء ولا يعطيهم اسمه الحقيقي. ليسند الأمر إليّ دائماً" نظر أبي إليّ بحب وقال: "أسمعت يا ولدي؟ لا تجب عن أي سؤال يطرحه عليك رجال الميناء بل أحل كل شيء إلى عمك الراهب".

هززت برأسي موافقاً دون أن أعرف ما الذي يجري. لم يكن ثمة وقت لأستفسر عن القصة ولا ليشرح لي والدي والراهب سر الأوراق التي جهزوها لي. لكنني فوجئت بأمي تقول: " ذاك أمر يتعلق باسمك الجديد يا ولدي".

اسمي الجديد!

سألت وأنا أتنقل بتحديقاتي الحائرة بين أبي والراهب وأمي. رد أبي وهو ينظر شزراً إلى أمي الحزينة:

ستفهم بعد قليل يا ولدي، لا تقلق. اتبع ما يقوله لك عمك الراهب.

شعرت وقتها بالحيرة هاويةً لا قرار لها.

وسرعان ما ارتفع صوت رئيس النوتية ينادي الذين مازالوا على البر ويطلب منهم أن يلتحقوا سريعاً بالسفينة الهولندية معلناً أنها الدقائق الأخيرة لمن على البر. كان لا بد من اللحظة التي كنت أرتعش من مجرد تخيلها. عانقتني أمي عناقاً حاراً وصارت تقبل وجهي بجنون. لم تتركني إلا حين صرخ أبي: "لم أعهدك هكذا يا سارة. دعي الولد يذهب في طريقه، هذا فأل سيئ"، تركتني أمي للحظة، ثم عادت وشدت وجهي ناحيتها وقبلت عيني الاثنتين الدامعتين. بعد ذلك عانقني أبي وربت على كتفي قائلاً: "أنت رجل يا ولدي، ولن تعود إلا وفي فمك لسانان آخران".

كدت أضحك حين تخيلت تزاحم الألسنة في فمي، لكنني حبست ضحكتي لثقل الموقف.وهول ساعة الوداع. في تلك اللحظة عاد الحوذي

الكردي من السفينة بعد أن نقل إليها كل حقائبي. رمقني بحزن، ثم تقدم إليّ فصافحني بقوة، وهو يقول: "امضِ بالسلامة إلى حكايتك يا خوارزى. أما بقية حكايتي فسأرويها لك كما وعدتك حين تعود بإذن الله".

ثم، بعينين مبتلتين وقلب يعصره ألم فظيع، تبعتُ الراهب الماروني إلى السفينة.

*****

توقف المترجم العجوز مرة أخرى وصار يحدّق صامتاً حزيناً في النار التي كانت تثرثر دون توقف بألسنة من لهب يتشظى إلى نصال نارية تضرب كافة الاتجاهات فيما كانت تُسمع بين الفينة والأخرى طقطقة على غير هُدى من الخشب المحتضر. بقي العجوز كذلك لبرهة قصيرة ثم استمرَّ يملي على خادمه يونس:

كان ذلك صباح يوم أحد، من شهر حزيران من عام ألف وسبعمئة وثمانية من التاريخ الميلادي. نشرت السفينة الهولندية بلاك بيرل، وتعني بلغات الفرنجة اللؤلؤة السوداء، أشرعتها وحلّت مراسيها وانطلقت في الساعة السابعة والنصف من ميناء الإسكندرون لتتجه إلى جزيرة قبرص. كانت ريح ذلك الصباح رخية والسماء صافية زرقاء كبساط من الفيروز وكنت قد ودعت في الميناء حوذينا الكردي وأبي وأمي اللذين لوّحا لي بحزن جمّ حين صرت على سطح السفينة ورأيت دموع أمي تنساب فيما لاحت على وجه أبي الحزين ابتسامة حنون يحف بها حزن عميق. لوّحت لهما بدوري وقلبي يخفق مثل موجة تصطدم بصخرة. كانت السفينة تبتعد والميناء الذي تسوّره الجبال يصغر ويصغر حتى صار بحجم حصاة في برية شاسعة.

ولكي يُسَرّي الراهب الماروني عنا همومنا ويبدد وجومنا ويُذهِبَ عنا وحشة السفر ورهبة البحر أخذنا نحن الثلاثة، أنا والشابين، في جولة على سطح المركب وصار يرينا الشطآن البعيدة والسفن الراسية منها والماخرة ويشير بغبطة ظاهرة إلى كل الجهات مسمياً إياها بأسماء بدت لنا غريبة الوقع حتى اقتربنا من تاجرين من البندقية كانا يتحدثان بالإيطالية. ترجم الراهب ما كان يدور بينهما من حديث فقال:" هما يتحدثان عن ضرر السُّكنى في ميناء الإسكندرون وكيف أن مرضاً غريباً اسمه زعفران باشا يصيب الفرنجة الذين يسكنونه لأن الميناء لا يناسب أمزجة الغرباء هنا". وكم كانت دهشتي عظيمة، حين تجاوزناهما، والتقينا رجلاً كوسجاً أزرق العينين في زي غريب يحدق في الأمواج التي تلاحق السفن واجماً.

هو لم يلحظنا لاستغراقه في ملاحظة السفن التي كانت تمخر عباب البحر ذلك الصباح.

لكنني تأملته عند مرورنا الخاطف به فإذا هو الخواجه مارتين الإفرنجي الذي نافس أبي في تجارة الورق حين كنا في حلب حتى أفلس أبي. لا أعرف لِمَ خالجني شعور بالشفقة عليه، فقد رأيته وحيداً يتيماً مثل شجرة الآمال التي حدثني عنها الحوذي الكردي في حكايته حين كان يقود العربة من بيلان إلى الميناء.

وقفنا، غير بعيدين عن مارتين، نحدّق في الجهة التي تقصدها سفينتنا الهولندية أي جزيرة قبرص. توجّه إليّ الراهبُ بولس وقال بصوت رخيم: "سأعرفك إلى هذين الشابين اللذين سيرافقانك، مع أخ تلقونه في قبرص، إلى المدرسة المارونية في روما ما دمت فيها. هذا سابا الزجال من كسروان وهذا

جرجس.....”، قاطع الشاب ذو البشرة السمراء الداكنة الراهبَ الماروني وقال مبتسماً وهو يمد لي يده: ”أنا جرجس عبد المسيح من المنيا في مصر“.

وحين هممت بتعريف نفسي لجرجس وسابا، قال الراهب الماروني موجهاً كلامه لهما: ”وهذا رفيقكما يوحنا الأنطاكي“. دهشت من هذا التعريف الخاطئ وكدت أصحح له، لكنني فوجئت به يمسك بيدي ويعصرها، علامة طلب السكوت، ويقول لي بالتركية: ”اكتم هذا الأمر وسأشرحه لك فيما بعد.

لا تنس نصيحة أبيك في أن تحيل كل شيء إليَّ“. ثم سكت فهززت رأسي موافقاً مع ابتسامة شعرت وكأنني أُجبرت على رسمها. ولما رأى الراهب أنني فهمت إشارته وقبلت طلبه سُرَّ وقال: ”وأنا أخوكم وخادمكم بولس عبد النور من جبل لبنان“.

ساد قليل من الصمت بيننا تخللته أصوات البحر وصراخ النوتية وثرثرة ذينك التاجرين من البندقية اللذين كانا يقفان بجانب الخواجة مارتين الإفرنجي الذي بقي على حاله كما تجاوزناه قبل قليل ساهماً محدقاً في البحر.

كانت الريح تجري رخاء وتدفع الأشرعة باتجاه الغرب وكنا نحن الفتيان الثلاثة، سابا وجرجس وأنا، صامتين لا ندري ما نقول. صرت أفكر في الحكمة من تسميتي باسم يوحنا الأنطاكي، حتى إنني صورت الأمر على أنها كذبة سقيمة اقترفها الراهب بولس لغاية في نفسه. وبالفضول الذي كان صفة ملازمة لي، حاولت أن أختلي بالراهب فأستفسر منه سرَّ اسم يوحنا، لكنه لم يكد يبرحنا نحن الثلاثة فتركت الأمر لحين سنوح فرصة مناسبة، بينما أصبح الاسم يوحنا يطن في أذني كقفير من النحل.

اشتدت الريح الشرقية قليلاً فزادت سرعة المركب وارتسمت علامات

الفرح على وجوه النوتية حتى انتقلت إلينا عدوى الفرح وذهبنا إلى مقدمة السفينة، حيث كان بعض الركاب يشيرون بسباباتهم إلى قطعة بعيدة من اليابسة ويصيحون: "هذه قبرص".

أنتم رهبان اللغة.

قال الراهب ذلك فجأة، وهو يشير إلينا بكلتا يديه المبسوطتين ثم أردف: ستبقون في روما، ستبقون في المدرسة المارونية إلى أن تمتلكوا ناصية اللغتين الإيطالية واللاتينية. قد يمتد زمن تعليمكم خمس سنين بعدها ستعودون إلى أوطانكم لتفيدوا ملتكم وتنقلوا إلى العربية ما في خزائن الإفرنج من كتب نفيسة. إن الفرنجة أيضاً يرسلون فتياناً إلى الآستانة وسميرنة وحلب وغيرها لتعلم العربية والتركية. أنتم، وفتيان اللغة الإفرنج، ستبنون جسوراً هدمتها الحروب والإحن. ستكونون رياحاً لواقح لحقول العقول شرقاً وغرباً ولتكن الحروب بعد الآن حروب مداد وورق وجدال، لا دماء وساحات قتال.

ولتتحاور الأديان على القراطيس بالحجج والبراهين لا بمبارزات الصناديد في الميادين. ولتتقاتل الأمم لا بالسيوف بل بالحروف. إن الله حق وإن الحق لا يحتاج لسفك دم البريء كي نعرف أنه حق. بل إن المرء ليلبس الحق لبوس الباطل إن هو أزهق روحاً بشرية للوصول إلى غايته. إن الله نور أيها الفتيان وإن النور يبدد الظلام بمجرد سطوعه وليس بدم يراق وجيوش وكتائب تملأ الآفاق.

إن ملوك العالم والأباطرة والقياصرة والأمراء والسلاطين والبادشاهات ينقادون لحطام الدنيا وشهواتها من ملك زائل ومجد باطل فيقودون الألوف المؤلفة من الناس إلى حروب لا طائل من ورائها، وإن حروبهم التي يخوضون

غمارها ويثيرون نقعها باسم الرب لا تحصد إلا ما زرعته يدا الرب تعالى من غرس بهيّ في هذه الأرض. ولقد حان – يا أبنائي – وقت انتهاء هذه الحروب الدنيوية وسقاية الأرض لينبت الزرع المقدس من جديد كما يريده الله.

كان كلام الراهب أكبر من أفهامنا، فلم يرد عليه أيٌّ من ثلاثتنا، وربما انتبه هو لحماسه واندفاعه في الكلام ورأى أنه يبسط أفكاره في غير وقتها فأحجم عن الإكمال وابتعد عنا قليلاً وهو يردد أدعية وصلوات بالسريانية.

كان أبي قد شرح في الأيام التي سبقت سفري إلى روما، لماذا عليَّ أن أسافر، لكنه لم يقنعني بشيء.

وعلى كل حال فإن حجج أبي ومبرراته لم تكن تشبه قطعاً ما حدثنا به الراهب الماروني بولس على ظهر السفينة الهولندية. كان لكل واحد منهما غاية تختلف عن غاية الآخر ولم أكتشف هذا التباين في الغايات إلا حين ألقى الراهب على مسامعنا خطبته البحرية القصيرة تلك. كنت أحب الدرس والمطالعة وكانت الكتب التي حواها أبي في خزانته الكبيرة تكفيني لأحيط بالمعارف قديمها وجديدها. ولم أكن بحاجة كبيرة إلى لغات أخرى، فالعربية كنت أتقنها كالشركسية والتركية. ولم أكن أجد في نفسي رغبة في تعلم الإيطالية أو اللاتينية، بل لم أجد إلى تعلمهما حاجة أصلاً. لكن كان لا بد لي من إطاعة والدي أخيراً فطاعة الوالدين من طاعة الله، هكذا كان يردد أبي دائماً ويضيف: "الشركسي لا يكسر كلام أبيه حتى لو أمره بابتلاع الجمر".

ابتلعت الجمر حقاً. تركت ورائي حبي الوليد وهجرت إستر دون أن أعلمها حتى بمقصدي وموعد ذهابي ومآبي. شعرت بجمر الرحيل في منتصف حلقي لا يزحزح عنه، يحرقني لذعه فيمنعني من الشكوى والتبرم.

كانت غاية أبي مختلفة إذاً عن غاية الراهب الماروني بولس، فالمرحوم أبي دفعني لسلوك ذلك الدرب لما للتراجمة من حظوات لدى التجار وأركان الدولة العلية والوجهاء والباشوات والأمراء، ولما يتقاضاه المترجمون من رواتب مجزية وامتيازات أشبه بامتيازات الفرنجة في بلاد الباب العالي فلهم الحق في أن يجيروا شخصين في العام بموجب البراءة السلطانية، وهم لا يدفعون الضريبة، ولا يزجرهم أحد أو يزجهم في السجون دون علم القناصل.

وقد شددت الدول الإفرنجية على هذه الأمور لما لاقاه المترجمون من الأهوال في بداية أمرهم، فلقد قام الانكشارية بشنق مترجم بندقي يُدعى بوريشي بدعوى تدخله في القضاء العثماني، كما وضعوا مترجماً فرنسياً على الخازوق لأنه احتج على مصادرة سفينة فرنسية وما أكثر المترجمين الذي جُرُّوا من لحاهم وضربوا وسودت وجوههم بالسخام وأُرْكِبوا بالمقلوب على الحمير وأهينوا على الملأ لارتكابهم هفوات نجمت عن جهلهم بقوانين البلاد الجديدة التي وفدوا إليها أعني دولتنا العلية العثمانية. وقد كان التراجمة في البدء أتراكاً أو روماً أو من رعايا الدولة العلية من المسيحيين غير الفرنجة يعملون بأجور ضئيلة، وكثيراً ما كانوا يخونون الأمانة فيفشون فحوى محادثات التجار والقناصل مقابل الحصول على بعض المال، وهذا ما كان يلحق بالغ الضرر بمصالح الأمم الإفرنجية، حتى إن بعض التراجمة من الترك كانوا عيوناً للباب العالي يتجسسون على القناصل والتجار وينقلون إلى ديوان الباب العالي ما يتناقله الفرنجة في مراسلاتهم ومحادثاتهم من أمور التجارة وغيرها، لذلك أصدر لويس ملك فرنسا أمراً يقتضي بأن يكون من يترجم للقناصل الفرنسيين في الإسكالات من رعايا المملكة الفرنسية لا غيرها على أن يكون كل مترجم

قد أدى اليمين أمام القنصل في الإسكالة التي يعمل فيها.

إلا أن القرار هذا جاء متسرعاً فلم يكن ثمة فرنسيون يجيدون لغات البلاد العثمانية كالتركية والعربية فأنشأ الفرنسيون داراً لإعداد المترجمين عمل بموجبها شباب يافعون سموهم فتيان اللغة، وبالفرنسية Les Jeunes de la Langue وصارت هذه الدار ترسل من مدن فرنسا كل ثلاثة أعوام ستة يافعين في العاشرة من العمر إلى الآستانة وسميرنة، ليتلقوا دروس اللغتين العربية والعثمانية في أديرة النصارى على يد الرهبان الكبوشيين لأعوام ثلاثة أو أربعة ثم يصبحوا مترجمين لدى التجار والقناصل من الفرنجة أو يعودوا إلى ديارهم ليصبحوا تراجمة لدى علية القوم وأمرائهم وحتى ملوكهم العظام. وصار لا يُحاكم إفرنجي إلا بحضور ترجمان من ملته فإن شغلَ الترجمان أمرٌ ما، تأجل البت في قضية المحكوم حتى فراغ الترجمان وحضوره إلى المحكمة.

وقد عم نفع هؤلاء في أعمال الترجمة كلها وليست المتعلقة بالمحاكم وقضايا الرعايا الإفرنج وصاروا يتقاضون مبالغ طائلة حتى بدأت العائلات الفرنسية في جميع الإسكالات تسعى إلى إرسال أولادها إلى الآستانة وسميرنة لتعلم اللغات في تلك الأديرة. ونظراً لما لقيه المترجمون من أنعام ومزايا خاصة وفد التراجمة من مدن إيطالية أيضاً وبشكل خاص من البندقية التي حذت حذو فرنسا ودأبت على إرسال شباب يافعين إلى هذه البلاد سمتهم أيضاً فتيان للغة وبلغتهم الإيطالية لا جيوفاني ديللا لينغوا - La Giovanni della lingua فكانوا يأتون إلى الآستانة ليتعلموا على يد قساوسة ورهبان بارعين في الألسن اللغتين العربية والعثمانية ويصبحوا تراجمة في الإسكالات ويطلعوا على أساليب الإدارة العثمانية ويكتشفوا طرقاً جديدة لتجارة مدينتهم

وترويج بضائع تجارها وتسهيل أمورهم كافة. وقد كانت اللغة الإيطالية في البدء وحدها اللغة المعتمدة لدى الباب العالي، وبها كان يتخاطب السفراءُ في الآستانة والتجارُ في الموانئ والإسكالات وسائر مدن الدولة العلية حماها الله.

فكان جميع التراجمة إما إيطاليين أو ممن يعرفون الإيطالية من روم الآستانة. ثم سمح الباب العالي بتداول الفرنسية وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن بدأ الإنكليز إرسال بعض الأروام العثمانيين إلى إنكلترا فوزعوهم على مدرستي جلوستر وأكسفورد، وما زال هذا النظام سارياً إلى يومنا هذا.

أما لماذا لم يرسل الإنكليز فتيانهم إلى الشرق كالبنادقة والفرنسيين بل جلبوا فتيان الأروام النصارى إلى بلادهم فلأنهم، كما بيّن لي الراهب بولس، حرصوا على نشر مذهبهم الأنجليكاني أكثر من حرصهم على تعليم اللغات وتعلمها. ولما رأى اليسوعيون ذلك وخشوا أن يسلبهم البروتستانت خيرة تلاميذهم، عرض الأب دي راسبوس في سميرنة تأسيس مدرسة في مرسيلية الفرنسية لتدريب فتيان مشرقيين على الإيمان الكاثوليكي ليكونوا أساقفة المستقبل.

ولقد جاء زمن عجت فيه الشوارع والأزقة في الإسكالات البحرية والمدن الكبيرة الأخرى بهؤلاء التراجمة الذين كان المرء يميزهم من رطانة حديثهم حين يتكلمون العربية أو التركية ناهيك عن ملابسهم الغربية الخاصة وزيهم المميز، فالأحذية كانت صفراء اللون من الجلد، وكان لا بد لكل مترجم من قَلْبَق فرو على رأسه صيفاً أو شتاءً حتى إنهم سموا في كثير من الأحيان بالقلبقلية أي أصحاب القلانس أو معتمري القبعات.

وبلغ المترجمون من الحظوة مبلغاً عظيماً حتى إن بعضهم صاروا من رجال البلاط عند الملوك العظام كالخواجة طربيه من لبنان الترجمان في بلاط ملك

فرنسا السابق لويس الرابع عشر، والترجمان الشهير في بلاط آل عثمان المرحوم إسكندر إسكرلاتزاده الذي حضر كل جلسات معاهدة السلام قبل عشرة أعوام مع رفيقه المرحوم رئيس الكتّاب رامي محمد باشا الذي قضى نحبه قبل سنوات في جزيرة رودس التي لي معها شأن سأحكيه، أقصد سأمليه عليك، فيما بعد.

تنهد الترجمان العجوز، بعد إملاء هذه السطور العديدة، كمن انتهى من عمل أرهقه. وهو كذلك حقيقة، فالدخول في تفاصيل التاريخ يشبه السير حافياً فوق بساط من الشوك مع محاولة ألا يؤلمك وخزه ولا يدمي قدميك نكزه. صمت العجوز بعد أن أطلق تنهيدته فدوَّن خادمُه الصمتَ بحبر الصمت. وحين أحس بمزيد من الدفء الذي وهبه الخشب الحنون في احتراقه، مدّ يده إلى رأسه فنزع قلنسوته السوداء الصغيرة ثم وضعها بجانبه وصار يمسح على صلعته ويخلل لحيته الطويلة بأصابعه التي ذكّرته آلامها بثقل الإملاء حين تطول مدته وتمتد برهته فقال ليونس مشفقاً: " أعياك التدوين أليس كذلك؟"

لم ينكر الخادم أن نَصَباً قد اعتراه، لكنه ردَّ بابتسامة كبيرة: "ما دونتُه من صمت مولاي أعياني أكثر من الحكاية الصاخبة" ثم أردف بلطفٍ جمٍّ خشيةَ أن يُساءَ فهمُه: "إن شاء مولاي أن أستمر فلا بأس". طرب العجوز لخفة روح خادمه ودماثة خلقه فقال: "لا يا يونس. سنرتاح قليلاً. فهل لك أن تعد لي معجوناً لهذا النقرس اللعين؟ فلقد استطاب المقام في مفاصلي ويأبى مبارحتها".

فقال يونس وهو يضع القلم على المفرشة بعد أن جفف رأسه:" بكل سرور

يا مولاي. لقد أعددت لك وصفة الشيخ داود الأنطاكي في تذكرته". ابتسم المترجم العجوز وقال:" أتعني جريش الصندل الأحمر؟" رد الخادم: "كلا يا مولاي، بل أعني ورق القطن والرِّجْلَة.

لقد جرشت الأوراق اليابسة حتى صارت ذروراً سأعجنه بدهن الورد الآن. كنت سأهيئ لك معجون الصندل الأحمر لكن الخادمات أخبرنني بأنه يعوزنا ماء عنب الثعلب".

تنهد العجوز ثانية وقال: "إن الله يضع قوة الشفاء حيث يشاء، لا بأس بمعجون الرِّجْلة يا يونس".

وحين انصرف الخادم النبيه إلى خزانة صغيرة بقرب الموقد- تراصفت في رفوفها العلوية كتب شتى وفي السفلية قراطيسُ ويراعٌ ودوىً قديمةٌ جفَّ حبرها وصدأت حوافها، وخرقٌ لتجفيف الحبر ومفارشُ كتانٍ متسخةٌ صغيرة لوضع الأقلام فوقها ومصاقل لإزالة خشونة الورق ومصامغ للصق القراطيس بعضها ببعض، ومخارز لثقب الطروس وأقفال صغيرة، وشموع قديمة وسُرُجٌ وفتائل وحِقاقُ رمل وأوعية فيها بعض الأعشاب اليابسة وبعض القواقع وزجاجاتٌ تحفظ الزيوت الطبية- ليعدَّ لمولاه معجون علاج النقرس، باغته المترجم بسؤال: "كم لساناً تتقن يا يونس؟" رد الفتى وهو يضع ذرور ورق القطن والرِّجْلة في الهاون النحاسي ويسكب فوقه قليلاً من دهن الورد: "أجيد لغتنا الألبانية واللغة العربية وقليلاً من التركية إلى جانب قليل من الأرمنية يا مولاي".

ما شاء الله! أنت فتى من فتيان اللغة إذاً يا يونس. سأعلمك الإيطالية أيضاً.

*****

الفصل الثالث

I- الراهب الماروني

استيقظ المترجم العجوز بعد أن نال قسطاً وافراً من الراحة التي اعتاد عليها ظهيرة كل يوم، حيث يتناول طعام الغداء ثم يطالع فيما تيسر من الكتب اللاتينية والإيطالية التي جلبها معه من روما، ليأخذ بعد ذلك قيلولة كافية تدوم ساعة أو ساعتين من النهار.

كانت قيلولته هانئة فشعر، حين أفاق منها، بشيء من النشاط والرغبة في المشي قليلاً. كان النقرس قد غادر سلامياته فأزال عن يديه اللبخة التي أعدها له خادمه يونس ثم اعتمر قلنسوته السوداء ووضع عليها طيلساناً من الحرير الكسرواني الأصفر والمطرزة حوافه الخارجية بنقوش زرقاء صغيرة، بعد ذلك ارتدى عباءته المبطنة بفرو الحملان ولبس خفيه ثم انتعل حذاءه وحمل عكازته من شجر الزان وخرج.

كانت ريح الشمال قد سكنت وسطعت شمس دافئة فخرج الأولاد يلعبون

في الساحات ويتراشقون بكرات الثلج بينما انشغل في مكان بعيد قليلاً عن القرية أطفال وفتيان آخرون بصيد الزرازير بفخاخ نصبوها في الثلج. كانت تلك فخاخاً تفتق عن ابتداعها خيالُ أسلافهم المعجون بالفضول فأتوا بغرابيل كبيرة ونصبوها في الثلج بميل معلوم على أُطُرها مسندين إياها على عصي مغروزة بشكل عمودي على عمق خفيف في الأرض أو الثلج ثم ربطوا الطرف المغروز من كل عصا بخيط طويل جعلوا نهايته في أيديهم بعد أن نثروا قليلاً من الحب بعيداً عن الفخ ثم مدوا أثراً من الحب وفتات الخبز إلى ما تحت الغربال وأكثروا منه ليطول زمن التهاء الطير بنقره والتقاطه ووقفوا خلف الصخور بعيدين يترصدون خفق الأجنحة ويصغون السمع لحفيفها وهم يتبادلون الكلام همساً يُشاكل سقوط الثلج.

تقدم العجوز بخطى وئيدة واتجه غرباً بقلب عامر بالحبور وهو يعود بذاكرته سبعين عاماً إلى الوراء حين كان يمارس طقوس الفرح الطفولي تلك بعينها، فرأى نفسه طفلاً يصيد الزرازير ويرشق إخوته وأترابه بالثلج ذات شتاء بقي في ذاكرة القرية كثيراً بسبب ندرة سقوط الثلج على ذلك الساحل.

وما إن ابتعد قليلاً وهو يغوص عميقاً في ثلج الخيال حتى لحق به مسرعاً خادمه يونس حاملاً قفازين من جلد الخروف ببطانة من الفرو الناعم كان المترجم العجوز قد أحضرهما معه إلى جانب تحف أخرى من إيطالية.

لقد نسيتهما يا مولاي.

قال يونس وهو يمد القفازين للمترجم العجوز الذي التقطهما ولبسهما شاكراً خادمه النبيه قائلاً بحنان أبوي:

هلاَّ رافقتني إلى البحر يا يونس! سنسير قليلاً على شاطئه حتى مصب النهر

ثم نعود. هذه الشمس نعمة من الله، وشكره على هذه النعمة يكون بالتعرض لها والاستمتاع بدفئها ونورها.

ما كان ليونس أن يعترض على مولاه، فلقد أرهقه التدوين المستمر منذ ثلاثة أيام بلياليها ورأى هو أيضاً في نفسه حاجة إلى الراحة فوافق على عرض الترجمان العجوز ثم صار يمشي خلفه بخطوة أو خطوتين إلى أن طلب منه الترجمان أن يمشي على الميمنة بحذائه لا خلفه. كان الشاطئ قريباً فما إن سارا دقائق معدودات حتى اعتليا صخرة كبيرة هناك يصيبها الموج برذاذه المالح وينظران منها إلى نهر العاصي يصب في البحر.

قال المترجم العجوز وهو يتأمل موجة صغيرة قادمة من بعيد تحمل زبدها على ظهرها وتتقدم صوب الشاطئ:

سأحدثك عن الراهب الماروني الذي رافقني إلى روما يا يونس. لكن قبل ذلك سأطرح عليك سؤالاً صغيراً: أتعرف لمَ يسمى ذاك النهر الذي يصب في البحر بالعاصي؟

الله ومولاي أعلم.

لأنه خالف عادة الأنهار في بلادنا فسار بعكسها كلها واتجه من الجنوب في لبنان إلى أنطاكية شمالاً ثم انحرف غرباً وصار يهبط إلى الجنوب الغربي ليصب حيث ترى. كان الأجدر أن يسميه الناس بالنهر الحر. إنه نهر حرٌّ يا يونس.

إنه نهر حر.

ردد يونس الجملة الأخيرة من كلام المترجم العجوز وهو ينظر إلى مياه النهر الحر تصب بصخب بهيّ في البحر، حيث اجتمع على ضفتيه بضعة صيادين

يلتقطون بشباكهم سمكاً أسود اللون جاء به التيار المجنون.

"كان بولس عبد النور حراً صاخباً كهذا النهر يا يونس". قال العجوز مشيراً بيده اليمنى المغطاة بالقفاز الجلدي إلى النهر الذي كان يعانق البحر بصخب وجنون ثم أضاف دون أن يرفع بصره عن النهر:

كان يتردد على بيتنا في حلب كثيراً، حتى إننا سميناه في بداية الأمر بولس الحلبي.

لكننا عرفنا فيما بعد أنه من قرية صغيرة في جبل لبنان. ولقد بدأت علاقته بأبي حين جاء واشترى عشرين رطلاً من الورق السمرقندي الذي كان يأتينا به تجار العجم. وكان أبي يحبه ويجله ويستشيره ولا يخاطبه إلا بكلمة: أخي بولس، حتى صرنا نخاطبه نحن الصغار العم بولس وكنا نظنه حقيقة أحدَ أعمامنا.

لم يكن الراهب بولس يشبه الرهبان الآخرين الذين ينقطعون للعبادة والتأمل فتراهم صامتين تعلو سيماء الكآبة وجوهَهم المصفرة، كان يتميز عنهم بوجهه الطافح بشراً وبنشاطه العجيب وحديثه الكثير المتواصل المليء بالأمثال، وسواء كان في الشارع أو على باب الكنيسة أو في الحانوت فإنه كان يبشر بالحب ويدعو للسلام ويقول إن الله واحد فلا تختلفوا في الواحد.

كان دائم الحديث عن أن الحروب التي تخوضها الجيوش باسم الرب ما هي إلا حروب يقودها الشيطان. وقد سمعته يقول ذات مرة لأبي فيما يشبه الهمس: "وهل تعتقد يا رشدي أفندي أن الله تقدس اسمه الأعلى بحاجة إلى جيوش جرارة وحروب وسفك دماء وأطفال يتامى ونساء أرامل وثكالى ورجال مفجوعين وشباب مذبوحين حتى تعلو كلمته؟ لا ينكر الشمس إلا

أعمى يا رشدي أفندي؟ لكي تعلو كلمة الله فهي ليست بحاجة لنلطخها بالدم.»

كان بولس مسيحياً مارونياً على مذهب الكثلكة، أما أبي فقد كان مسلماً لكن شيئاً غامضاً جذب أحدهما إلى الآخر فتآلفت روحاهما حتى إن أمي كانت تتبرم من تلك الصداقة وقالت ذات مرة: "أليس هناك غير هذا النصراني لتصادقه يا رشدي؟" غضب أبي كثيراً. لم أعهده غضوباً إلا أن جملة أمي تلك أخرجته عن طوره فقال محتداً: "إياك يا سارة أن تجعلي دين أحد من الناس صفة له بغاية السخرية منه. إني أشم من كلامك رائحة كراهية أحذرك منها". ثم أضاف وهو على نفس الدرجة من الغضب: "لو نظرت إلى أرومتك لما تزوجتك يا سارة.

لقد خالفت أبي وأعمامي وتزوجتك لأني أحببتك". احتدت أمي أيضاً وقالت:"أتريد أن تمن عليّ أن تزوجتني! ألست أنا مثلك أيضاً؟

لو نظرت إلى ملتك أيها الشركسي لما تزوجتك". سرعان ما تحوّل حديثهما الغاضب إلى شجار جعلنا أنا وأخواتي نركن إلى زاوية في البيت نرقب العاصفة التي أثارتها كلمة "نصراني" التي تفوهت بها أمي. بعد جولة من الشجار، هدأ والداي فانتبذت أمي ركناً بقرب نافذة تطل على باحة الدار وصارت تبكي.

أما أبي فقد هبط إلى الباحة وصار يقطع من شجرة الليمون ورقات يهرسها ويشمها على عادته حين يستبد به الغضب. بعد قليل صعد إلينا من جديد وصار يلاطف أمي حتى رضيت ومضى ذلك النهار على خير ولم تعد أمي تعير أبي بنصرانية صديقه الراهب بولس.

لقد كان لهذا الراهب سحر غامض سرعان ما يجذب المرء إليه. أكان هو

سحر كلماته؟ أم سحر البريق الذي كان يشع من عينيه حين يتحدث عن الله بحب لا حدود له؟

أم تراه كان سحر محياه الطلق وابتسامته الحنون وعينيه العسليتين الصافيتين؟ كان يشبه من جهة كثرة أسفاره أولئك الدراويش والصوفية من الذين يزهدون في الدنيا فيهجرون الطيبات ويسيحون في الأرض بصمت وتأمل، إلا أنه كان يختلف عنهم بحديثه الكثير وكلامه المستمر عن الحب.

توقف العجوز قليلاً، تأمل وجه يونس وقرأ وقع كلماته عليه فرآه مستغرقاً في الإنصات، نظر إلى تلك الموجة التي كانت قادمة قبل قليل فرآها تنزل حمولتها من الزبد لتذوب وتتلاشى على رمل الشاطئ كاشفة حصى وقواقع مختلفة الأشكال تحتمي بالرمل. كانت موجة أخرى هي أخت الأولى قادمة أيضاً بحمولة مشابهة تتجه إلى الشاطئ بصمت متخذة الطريق التي سارت فيه سابقتها. قال العجوز:

أرأيت يا يونس؟

ماذا يا مولاي؟

الموجة التي فنيت الآن على الشاطئ! هاهي موجة شبيهة بها تتبعها وهكذا إلى ما شاء الله. كل موجة تتقدم وتتقدم وترقى في معارج الماء حتى تنتهي أخيراً عند الشاطئ فتفنى كأن لم تكن. أما الراهب الماروني بولس فكان موجة فريدة لا تشبهها موجة أخرى. كان مثل موجة لا تجد شاطئاً تفنى فيه وتنزل عن كاهلها حمولة الزبد، كان مثل موجة تدور في البحر حول نفسها وتأبى الموت على شاطئ مذهب أو عقيدة. وكان يتنقل بين حلب ولبنان وأنطاكية وقبرص وروما حتى عرفه خلق كثير من سائر الملل والنحل وافتتنوا به لكن

قساوسة حلب ورهبانها اعتبروه رجلاً غريب الأطوار شاذاً منحرفاً حتى إن قساً اتهمه بالهرطقة والدخول سراً في الإسلام لما رأى منه كثرة احتكاكه بالمسلمين ومخالطته إياهم وارتياده مجالس درسهم والاستشهاد الكثير بآيات من القرآن لدرجة أن بعض طلبة الفقه ظنوا أنه شيخ من شيوخ المسلمين.

كان هذا الراهب، يا يونس، رجلاً من رجال الله، وكان ينكر أي واسطة بين المرء وبين الرب سبحانه وينكر كذلك سفك الدم باسم الله، كما ينكر وجود الجبر فيقول إن ما يفعله العبد من كسب يد العبد، ومنها انطلق ليدحض مزاعم الثنوية في إرادة شريرة بجانب إرادة الخير التي هي إرادة الله وحده. وقد بسط لنا، حين رافقنا في السفينة عقيدته فقال: "ربك أقرب إليك من حبل الوريد فإن لم يرشدك عقلك إلى وجوده فلن ترشدَك موعظةٌ من مخلوق.

وإذا دفعتك المواعظ إلى الايمان ترهيباً من عذاب أو ترغيباً في ثواب فلن تجد له في قلبك حلاوة لأن الأصل في الايمان هو الحب فإذا اتكأ على الخوف صار جبراً لا اختياراً، والجبر حتى في الايمان لا يليق بالرب سبحانه الذي هو خير محضٌ ونورٌ شاملٌ، أما إذا كان الايمان نابعاً من الحب ونتاجَ عقل حر فإنه يصير نوراً يطهر القلب ويزيل الحجب ويرفع المرء درجات عاليات حتى يدنو فؤاده فيكون قاب نبضين أو أدنى من الرب عزَّ وجلَّ".

سكت الراهب قليلاً ثم رفع بصره إلى السماء فتبعناه بأبصارنا وصرنا نرنو مثله إلى سماء زرقاء صافية.

قال وهو لا يزال يحدق في الأعالي: "إن السماء بعيدة أيها الفتيان. بعيدة بما لا يقاس، لكن الله قريب. قريب بما لا يقاس أيضاً". ثم خفض بصره ونظر إليَّ دون الشابين الآخرين وقال: "يختلف المسيحي عن المسلم والمسلم عن

المسيحي ويختلف اليهودي عن كليهما، ففي كل دين عبادات وصلوات وحتى لغة يُدعى بها الرب تختلف عن اللغة والصلوات والعبادات في دين آخر.

فلو قلت مثلاً إن فلاناً مسيحي فإنك تشير إلى دينه الذي اكتسبه من أبويه مثلما ورث لون شعره وسحنته وصفاته الأخرى، لكنك لا تشير إلى ما في قلبه من زرْع يد الرب وغرْسه المبارك، لا تشير إلى النار التي يوقدها الرب في قلوب من يحبونه.

إن الدين يختلف باختلاف معتنقيه، لكن الإيمان واحدٌ مهما اختلفت القلوب التي يسكنها، الإيمان لهبٌ ساطعٌ يتكرر في كل سراج وعلى رأس كل شمعة حتى وإن اختلفت أحجام الشموع وأشكال السُرُج".

كنت أصغي إليه بخشوع ورهبة سرعان ما تحولت إلى سعادة غامرة أنستني مرارة الوداع في الميناء ولوعة الفراق عن إستر.

نسيت كل شيء واختُصِر العالم عندي إلى تلك السفينة الهولندية التي كانت الريح تدفع أشرعتها البيضاء نحو الغرب بينما كانت ريح الحكمة التي تهب من كلمات الراهب الماروني تدفع أشرعة خيالي صوب الله تعالى حتى صرت أشعر بأنني أكاد ألمسه بيدي الفانيتين وأبصر نوره الذي يغمر أقطار السماوات والأرض.

وحين آنس الراهب منا إصغاء لكلماته ورأى مقدار تأثيرها فينا، حدَّق ثانية في السماء وقال: "لقد نفوا الله - حاشاه- إلى السماء ليصبحوا هم وكلاءه على الأرض حتى صاروا ينطقون باسمه ويجمعون الإتاوات باسمه ويرفعون راياتٍ عليها اسمُه ويسكّون الدنانير باسمه كأنه من الملوك الفانين وباتوا

يسفكون الدم الحرام على مذابح إيمانٍ به مزعوم لو أوغلت فيه لوجدته كفراً محضاً مَثَلُه كمثل حبة جَوْز أعجبك بهاء قشرتها وجذبتك صلابتها فإن فلقتها لم تجد إلا العفن الأبيض. نعم أيها الفتيان المباركون، إن إيماناً منشؤه الخوف لهو كفر أبيض".

كانت قد مرت ساعة من الزمان والراهب يمتعنا بحديثه ويضرب لنا الأمثال ونحن الثلاثة نصغي إليه، حين سأل جرجس عبد المسيح بأدب: "ولكن يا أبانا كيف نعرف مؤمن الخوف من مؤمن المحبة؟" قال الراهب وكأنه كان ينتظر هذا السؤال: "القلوب أوعية لا يكشف عنها الغطاء إلا من وضع الغطاء.

لكن كل امرئ أدرى بمنبع إيمانه فلو كان إيمانك من خوف فإنه سيزول في أول امتحان".

ثم سأل جرجس قائلاً: "يا جرجس أليس للذهب محك يختبره فيكشف خالصه ويميزه عن زائفه؟" رد جرجس: "بلى يا أبانا" فقال الراهب وريح خفيفة تهز لحيته الرمادية: "فكذلك الايمان له محك". سكت جرجس مكتفياً بذلك القدر من الجواب، لكن سابا الزجال الكسرواني انبرى يسأل بلطف: "وما محكه أيها المعلم؟" أجاب الراهب بولس: "إن الألم محك الايمان".

وحين وجدت أن رفيقيَّ استأنسا بكلام الراهب فطفقا يحاورانه ألقيت أنا أيضاً بنفسي في تلك المحاورة اللذيذة وسألت: "لكن يا عمي الراهب كيف يكون الألم محكاً للايمان؟ أيليق بالرب أن يختبر إيماننا بالألم وهو يعلم ما في الصدور؟".

حين رآنا الراهب نصغي إليه ونحاوره انفرجت أساريره فزاد بشراً وقال: "ليبارككم الله أيتها الخراف الطيبة. الحق أقول إنه إن كان الإيمان من الحب فلن يزيده الألم إلا رسوخاً، أما إذا كان خوفاً وخشية فإن الألم يزيله لا محالة ومثل هذا كمثل جندي أكره على القتال فإن رأى هذا الجندي أن القتل قد شاع في فريقه وأنه منهزم لا محالة فإنه سيهرب من الميدان في أقرب فرصة تسنح له لينجو بجلده، أما إن كان الجندي قد انخرط في صفوف الجيش طوعاً وحباً في منازلة الأعداء ومقارعتهم فإنه سيثبت في ساحة الوغى حتى لو فني الجند كلهم وبقي هو وحده".

ثم قال مستدركاً وهو ينظر إليّ: "نعم يا يوحنا، إن الله يعلم ما في الصدور، لكن ابن آدم لا يعلم حقيقة ما في صدر نفسه وربما ظن أن إيمانه مكين راسخ فناله من الغرور ما يقربه إلى الكفر، وهنا لا بد من نيران تجربة يلقي الرب عبده المغرور في أتونها حتى يعرف نفسه ويطلع على إيمانه ويخرج من التجربة كما يخرج النصل من كور الحدادين ويخرج قلبه كما تخرج آنية نحاس من أتون الصفارين".

حين أتى الراهب الماروني على ذكر الصفارين ارتعش قلبي. أحسست به بين ضلوعي كأنه آنية نحاس بين يدي إستر تأخذه لأبيها الصفار ليضعه في النار التي كان يوقدها وينفخ عليها بقربة بين يديه ثم يفرك الآنية بخرقة كبيرة فركاً متتابعاً حتى يزول الصدأ وتخرج الآنية لامعة كالفضة. تذكرت إستر وحبي الذي لم أهنأ به، تخيلتها تسمع برحيلي وتذرف الدمع كلما زارت قريتنا ومرت من أمام بيتنا، تنهدت وتلفت صوب الشرق. لا أعلم هل شعر الراهب بما دار في خلدي آنذاك أم لا، لكنه استمر محدقاً فيّ حين أنهى حديثه،

بقي كذلك لبرهة خاطفة ثم نظر إلى الأفق الغربي، حيث كانت اليابسة تتسع كلما تقدمت السفينة في عرض البحر، وواصل الكلام: "أجل أيها الفتيان المباركون، هكذا هو الايمان. والحب يا أيتها الخراف صنو الايمان. نعم، الحب صنو الايمان وتوأمه، أما محكه فهو الفراق، الفراق هو الأتون الذي تُلقى فيه قلوب العشاق فتزداد ضراماً وألقاً وترقُّ كالزجاج وتطهرُ من الدنس وتزداد بالمحبوب تعلقاً وإلى رؤيته اشتياقاً وتحرقاً.

وكما لا يجتمع في قلب العاشق الحبُّ والقسوةُ، فكذلك لا يجتمع الايمان مع الحقد في قلب المؤمن".

كانت السفينة الهولندية بلاك بيرل قد ابتعدت كثيراً عن ميناء الإسكندرون فلم نعد نرى سوى خيط من اليابسة يمتد على طول الأفق الشرقي يحجبه عن أنظارنا بعض الأحيان موج يعلو ويهبط. لم نشعر بالوقت ولا بدوار البحر الذي كانوا يحدثوننا عنه كثيراً. لم أكن قد ركبت البحر في حياتي إلا مع الصيادين في مراكبهم دون أن نبتعد عن الشاطئ كثيراً. كنت أخاف من الغثيان الذي يعتري راكب البحر، لذلك أعدت لي أمي قليلاً من السماق خلطته مع ذرور قشر الليمون وأمرتني أن أرمي منه قليلاً في فمي إن شعرت بالدوار.

نزع المترجم العجوز قفاز يده اليمنى ثم التقط حجراً صغيراً ورماه في اتجاه البحر. ابتلعت موجةٌ قادمةٌ الحجرَ الصغيرَ الذي تبعته نظرات الخادم الألباني يونس بفضول فقال:

الحجر أصاب موجة.

لا بأس يا يونس. فكما لا يضر موجَ البحر كلُّ أحجار الأرض يا يونس

فكذلك لا يضر الربَّ كفرُ من عليها جميعاً.

ثم عاد المترجم العجوز وارتدى القفاز من جديد، وواصل حديثه عن الراهب الماروني بهدوء: "حين ابتعدنا كثيراً عن الشاطئ وصرنا في عرض البحر، سكنت الريح قليلاً فسكنت السفينة وصارت تتأرجح برقة شديدة في حضن الماء. كانت فرصة لنا لكي نتناول قليلاً من الطعام ونشرب بعض الماء. لم يتناول الراهب شيئاً، لكنه شرب جرعة ماء ورش قليلاً منه على وجهه ولحيته وبقي ينتظرنا حتى فرغنا من الأكل فقال باسماً: "هنيئاً لكم ما طعمتموه".

ثم صمت برهة ليقول بعدها بصوت جهوري: "إن الايمان ليس بعبودية، بل هو عين الحرية". توقف قليلاً، نظر في وجه كل من جرجس وسابا ثم قرأ من سورة الكهف آية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وعقَّب قائلاً: "إنها لآية عظيمة لو تدبرها الإنسان وعوَّل على صريح لفظها دون الإيغال في مسالك تأويلها كما يفعل من يدعي مهارته في خوض لجج الباطن. أصل الايمان أيها الفتيان المباركون هو المشيئة الحرة فلا يكون المرء عبداً للرب إلا بمحض حريته. إن الله تعالى لا يعاقب عبداً أكرهه على سبيل الضلال، كما أنه لا يكافئ عبداً ليس له من هُداه إلا خضوع لمشيئة الإله.

إعلموا أنه ليس من الحريةً أن ترث الايمان أو الكفر من أبويك. إن الحرية بموجب قول "من شاء" هي أن يقودك العقل إلى الايمان. أجل أيها الفتيان، العقل. وحيث إن العقل هبة من الله للانسان، فهو لا يمكن أن يدل أحداً على الكفر".

قلت بثقة جمة: " لكن المشيئة، بموجب الآية، تقود إلى الكفر أيضاً، فهل المشيئة تخالف العقل؟" سُرَّ الراهب بهذا السؤال حتى طفحت عيناه بالبشر

فقال وهو ينظر إلى القلوع التي بدأت تنتفخ حين هبت الريح من جديد: "مثل المشيئة والإنسان والعقل كمثل الريح والسفينة والنوتية. الريح تدفع السفينة على الماء وتحركها، أما النوتية فيوجهونها الوجهة التي يختارون بآلات وطرائق خاصة كالدفة والبوصلة والقلوع والمجاديف. فالإنسان هو السفينة والمشيئة هي الريح أما العقل فمثله النوتية وعلمهم الذي استنبطوه وطرائقهم التي اتبعوها. فهل يقود النوتي الحكيم مركبه إلى بر الأمان أم إلى ظلمات البحر؟".

أجبنا نحن الثلاثة بصوت واحد: "بل إلى بر الأمان يا معلم".

أحسنتم.

قالها الراهب ثم توقف عن الكلام حين رأى الطبيب الإنكليزي قادماً نحونا.

II- الطبيب الإنكليزي

هبطت الشمس على سلالم الشفق حتى لامست حاشيةُ ثوبها الناري أفقَ البحر من جهة الغرب فزادت جلبة الصيادين الذين كانوا عند مصب نهر العاصي وبدا أن صيدهم كان وفيراً ذلك اليوم. وقبل أن تغطس الشمس رأسها الدامي في طست البحر هبت نسمات باردة أثارت موجه وصخبه فقال الترجمان العجوز وهو يلقي آخر حجر كان في يده:

آن لنا أن نعود يا يونس.

وما إن نهض الاثنان حتى ظهر من بعيد أحد الصيادين يسرع في اتجاههما، كان يحمل سمكتين رماديتين سمينتين في سلة صغيرة مدها إلى يونس وعيناه تقدحان فرحاً:

اصطدنا ما يفيض عن حاجة قرية كاملة. فلتكن هاتان السمكتان عشاء لمولانا الشيخ.

شكر الترجمانُ العجوزُ الصيادَ بحرارة بينما كان يونس يتسلّم سلة القش الصغيرة ويحدّق بفضول في السمكتين الطريتين، ثم اتجه الاثنان صوب منازل القرية وعاد الصياد جذلاً إلى رفاقه.

كانت شمس ذلك النهار، قبل أن تغيب، قد رفعت بساط الثلج إلا من بقع ظليلة تحت شجرة أو وراء صخرة أو في حفرة هنا أو هناك. ولما وصل الاثنان إلى البيت وجدا شجيرتي النارنج والليمون وشجرة الكينا الكبيرة عاريات من الكساء الثلجي الذي أسبغته عليها العاصفة الليلية البيضاء.

قال الترجمان العجوز وهو يهم بدخول حجرته:

قل للطاهية تشوِ السمكتين يا يونس وانظر إن كانت الخادمات قد أعددن حساء العدس فأتنا بقليل منه.

حباً وكرامة. لكن أفلا نشعل الموقد يا مولاي؟ لقد برد الجو!

بلى يا يونس. ألق حطباً في الموقد وأنا سأشعله ريثما تأتينا بالعشاء.

نزع الترجمان العجوز قفازيه عن يديه ورماهما على إسكملة دمشقية من الأبنوس مطعَّمة بالصدف والعاج ثم خلع جبة الفرو وعلقها على مشجب من الخشب بجانب الباب، بعد ذلك أشعل النار في الحطب الذي ألقاه يونس في الموقد ثم جلس على كرسي من خشب الصنوبر مسانده منجَّدة ومكسوة بحرير حشوهُ صوف الغنم. كانت الإسكملة الدمشقية والكرسي ذاك من ضمن الأثاث الفاخر الذي ورثه الترجمان العجوز عن أبيه التاجر الشركسي رشدي والذي ورث بدوره كل ذلك الأثاث من أبيه القائد في الفرقة الانكشارية من جيش آل عثمان إلى جانب تحف كثيرة نفيسة ونادرة عجت بها حجرات ذلك المنزل الكبير في تلك القرية الساحلية التي شهدت

على مدى ليالٍ عدة ذاك الشتاء تدوين هذه الحكايات التي سردها الترجمان العجوز العائد من إيطالية لخادمه يونس الألباني الذي اختاره، من بين غلمان عديدين عُرِضوا عليه، لحسن خطه ونباهته وصبره ودماثة خلقه.

تأمل الترجمان العجوز مغتبطاً لهنيهة قصيرة سريانَ النار والتهامَها الحطبَ والأغصان المتكسرة الرفيعة من أشجار التين واللوز والبطم، ثم نهض عن الكرسي بتثاقل فأوقد السراج ووضعه في مشكاته ثم عمد إلى شمعتين فأوقدهما ووضعهما، حيث يجلس هو وخادمه عادة، ثم جلس بجانب سريره على الأرض واتكأ على وسادة ريش كبيرة وهو يتمتم لنفسه:

الخشب معجزةٌ.

لم تمض ساعةٌ حتى عاد يونس وفي يده طبق من القش عليه سمكتان مشويتان وليمونة كبيرة وبعض الفلفل المطحون وذرور الكمون وفجل وبصل أخضر وملعقتا خشب وقليل من الخبز المحمص مع صراحية ماء. وما إن وضع يونس الطبق حتى تبعته خادمة تحمل في كل يد صحناً من حساء العدس يعلوه بخارٌ أبيض يشي بحرارة ذاك السائل الأصفر اللذيذ.

تناول الترجمان وخادمه العشاء بصمت تخللته فرقعة الحطب حين كانت النار تحيله دفئاً توزعه على الحجرة ورماداً تبقيه في الموقد. ولمَّا فرغ الاثنان من الأكل قام يونس ووضع الأطباق الفارغة وبقايا البصل والفجل وقشر الليمونة الكبيرة والحسك على طبق القش ثم حمله وذهب به خارجاً ليسلمه للخادمات ويعود سريعاً إلى مولاه الذي كان غارقاً في التفكير جالساً على الكرسي يتأمل الموقد.

قال يونس وهو يحضر القراطيس والمحبرة والقلم والمرملة ويراقب استغراق

مولاه في التفكير: "مولاي هل سنكتب الليلة شيئاً؟" انتبه العجوز فقال مبتسماً: "أجل يا يونس. سنكتب، سندوّن الحكايات كل ليلة إلى أن ننتهي منها جميعاً. رأيتني شارد الذهن أليس كذلك؟". ودون أن ينتظر الجواب قال: "الخشب معجزة يا يونس. كنت أفكر في الخشب".

جلس يونس، صامتاً دون تعقيب، على البساط اللبد، حيث كان يجلس في الليالي الثلاث المنصرمة واستعد لتدوين ما يمليه المترجم العجوز وهو يرفع قرطاساً ويضع آخر يفحص ما كتبه حتى وصل إلى ورقة كان حبرها لا يزال يفضح حداثة عهده على الورق وكان مكتوباً في آخرها: " قالها الراهب ثم توقف عن الكلام حين رأى الطبيب الإنكليزي قادماً نحونا".

لفظ يونس الجملة الأخيرة بصوت مسموع ففهم المترجم غاية خادمه وقال: "نعم، كنا قد وصلنا بمركب الحكاية إلى هذا الميناء. فلنبحر من جديد".

أفلا ندوّن حكاية الراهب الماروني يا مولاي.

بلى سندوّنها يا يونس، سندوّنها في أوانها فلا تقلق.

قالها المترجم العجوز مبتسماً، ثم رفع قفازيه من الإسكملة الدمشقية المطعمة بالصدف والعاج وترك الكرسي ليذهب إلى مكانه، حيث اعتاد أن يملي حكاياته على خادمه الألباني النبيه يونس.

اكتب إذاً هذه الليلة ما سأسرده عليك من حديث الطبيب الإنكليزي السير روبيرت حين التقيناه على متن المركب الهولندي بلاك بيرل.

ومضى الترجمان العجوز يملي الحكاية وهو يحدق في النار الموقدة التي كانت تملي بدورها للرماد والليل حكايات الشجر الأخضر وضوء الشمس وقسوة الفؤوس:

كان السير روبيرت رجلاً أشقر أزرق العينين بديناً يضع على شعره الطويل قبعة سوداء من المخمل تظلل وجهه المغطى بلحية شقراء وشاربين معقوفين. ما كنا لنعرف أنه طبيب لولا أن الراهب الماروني بولس قال لنا: "هاهو السير روبيرت الطبيب يتجه إلينا". كانت تلك أول مرة أرى فيها طبيباً إفرنجياً. ولقب السير لقبٌ يوازي الأفندي أو البيك عندنا وقد لفت انتباهي قفطانه الأسود الجميل وزناره الأصفر وبشرته الحليبية المشربة بالحمرة.

وما إن اقترب منا حتى حيانا باللاتينية قائلاً: "سالفى آميتشي" أي مرحباً أيها الأصدقاء. لم يرد عليه سوى الراهب الماروني الذي سرعان ما دخل معه حديثاً لم نكن نفهم منه سوى ما يظهر على وجهيهما من علامات حزن وسرور ورضى ورفض واستغراب ودهشة وحتى غضب كنا نجهل أسبابه.

تحدث الاثنان طويلاً بينما كانت السفينة المتجهة غرباً تحدث الموجَ عن موانئ كثيرة رأتها ورست فيها، ورياح عاصفة مزقت أشرعتها، وقراصنة حاولوا نهبها وجزر نائية زارتها. بقينا نحن الثلاثة، جرجس عبد المسيح وسابا الزجال وأنا، نصغي بصمت لثرثرة السفينة، إذ تحرث البحر وللحديث الغامض بين الراهب الماروني والطبيب الإنكليزي السير روبيرت الذي صافح الراهب أخيراً بحرارة، جهلنا سبب ذلك أيضاً، ثم ودعنا بابتسامة غريبة بدت كأنه أجبر عليها.

حين ابتعد الطبيب الإنكليزي عنا متجهاً إلى التاجر الإفرنجي مارتين الذي كان قد صعد من جديد إلى سطح السفينة، قال الراهب بولس:

أتدرون أيَّ حديثٍ جرى بيني وبين هذا الطبيب؟

هززنا أنا وسابا أكتافنا علامة النفي بينما قال جرجس مازحاً:

كنتما تتحدثان!

استظرف الراهب مزحة الفتى المصري جرجس فابتسم وقال:

أجل كنا نتحدث يا جرجس المبارك. كنا نتحدث عن الطب والإيمان. أتعلمون أن الإيمان طبٌّ أيها المباركون؟

إنه طب النفس.

رددت تلك الجملة على لساني وكانت قادمة من الذاكرة.

أحسنت يا...أحسنت يا...يا يوحنا. لكن أتعرفون ما هو الفرق بين الطب والإيمان؟

سكتنا، فقال:

لا فرق. ففي الطب كما في الإيمان مشعوذون يزينون لك مخاريقهم ويزعمون أنهم يقبضون على جمر الحقيقة. أي فرق بين طبيب دجال وأسقف مهرطق؟ أي فرق بين من يزعم القدرة على شفائك من ذات الرئة وبين من يدعي أنه دليلك إلى الجنة؟

سكتنا مرة أخرى، فأضاف:

"إن هذا الرجل الذي غادرنا الآن إلى أحد مرضاه، طبيب إنكليزي حاذق جاب الآفاق حتى وصل إلى الهند والصين واطلع على علوم الطب شرقاً وغرباً. تعرفت إليه في حلب في منزل القنصل الفرنسي لوران دو آرفيوس حين كنت برفقة البطريرك طيب الذكر أثناسيوس الثالث دباس. حينها كانت الرياح الشريرة تعصف بشجرة الكنيسة المشرقية وكان البطريرك يريد إيصال

رسالة لملك فرنسا في شأن يخص الكنيسة وصراع البطاركة على الكرسي البطريركي. كان ذلك قبل أكثر من عشرين عاماً. وكنت حديث الكثلكة أقارع المسيحيين الآخرين وأحاول إقناعهم بصحة الإيمان الكاثوليكي.

استقبلنا القنصل الفرنسي بكثير من الترحاب وانحنى مقبلاً يد البطريرك ثم قادنا عبر درج حجري إلى غرفة في الأعلى فسيحة جميلة الأثاث تطل نوافذها على باحة الدار المبلطة بالرخام والتي كانت تتوسطها فسقية ظريفة يحيط بها الياسمين في أصص حجرية. كان ذاك الطبيب جالساً يطالع في كتاب حين دخلنا الغرفة. سلّم عليه البطريرك فرد السلام ببرود ثم عرّفنا إلى القنصل وعرّفه إلينا. كان ذلك اللقاء أول لقاء بيننا، وقد شابه نقاش باللغة اللاتينية دار بين القنصل والطبيب والبطريرك حول الإيمان الصحيح وما هو المذهب الأقرب إلى روح الإنجيل، كان ذاك حديثاً تشعب كثيراً ولم أشأ الخوض فيه، بل آثرت الاستماع بصمت إلى الآراء المتباينة التي كدت أسمع رنينها وهي تتصادم كقرون الكباش.

وقد التقيت بالطبيب فيما بعد مرات كثيرة حتى إنه عالجني ذات شتاء قارس من آلام مبرحة في الظهر، علمت فيما بعد أنه أخذ صفة العلاج من كتاب التذكرة لداود الأنطاكي، إذ عمل لي عجينة من طحين حبة الشونيز وبزر الجزر والزنجبيل وقليل من الخولنجان طبخها في عسل منزوع الرغوة ودهن بها ظهري لمدة ثلاثة أيام وفي الرابع غادرت الآلام ظهري".

سكت الراهب هنيهة ونظر في جهة جزيرة قبرص التي كانت تستقبلنا ببرها الصخري ثم استمر يحكي: "ولقد دار بيننا آنفاً حديث عن الإيمان وأثره في علاج النفس. قلت للسير روبيرت إن مثل الإيمان في حياة المرء كمثل جزيرة

في عرض البحر، فإذا اشتد هبوب العواصف وساءت الأنواء وهاج الموج واهتز المركب وضج الركاب وأيقن النوتية بالهلاك، ظهرت لهم جزيرة قريبة فجدفوا صوبها مسرعين حتى وصلوها وألقوا هنالك المراسي. الايمان جزيرة عاصمة من أعاصير الحياة أيها الفتيان المباركون".

وهل يرى السير روبيرت ما تراه أيها الأب المبجل؟

قال جرجس عبد المسيح وهو يبسط كفيه كقوس عريضة فوق عينيه اتقاء للشمس. رد الراهب بحزن: "المال جزيرة هذا الطبيب. إنه يعتقد أن المال جالب للسعادتين الروحية والبدنية. لقد كان قبل قليل عند تاجر إفرنجي اسمه مارتين. تاجر ابتلاه الله بنوع عجيب من الخرس وأصاب الفالجُ لسانَه فلا يقدر على تحريكه في فمه. إنك تعرف مارتين أليس كذلك يا.. يا يوحنا الأنطاكي؟"

أجل أيها الراهب. لقد كان جشعُ هذا التاجر سبباً في بوار تجارة أبي. أعرفه منذ أيام إقامتنا في حلب فلقد نافس أبي في تجارة الورق حتى أفلسنا وغادرنا حلب مثقلين بالدين.

أتدري! لقد أفلس هذا التاجر أيضاً في أواخر إقامته بحلب قبل أقل من عام، ولكي ينقذ تجارته أشهر إسلامه بحضور الوالي وقاضي الإسلام وسر عسكر الانكشارية. لكن إسلامه، الذي كان لغرض دنيوي، لم ينفع تجارته.

لقد عاقبه الله لأنه ترك ديننا القويم.

قال سابا الزجال بثقة فرد عليه الراهب: "كلا يا بني. فإن كل دينٍ قويمٌ إذا نبع من إيمانٍ ضارب في أعماق المرء".

إذاً، فقد عاقبه الله لأنه تسبب في إيذائنا.

قلت ذلك معقباً على كلام الراهب فضحك ثم قال:

هذه تصوراتنا عن الرب سبحانه. لكنه منزّه عما يخطر في بالنا نحن البشر الذين نقيس كل شيء بمقياس مداركنا القاصرة. أو تظنون أيها الفتيان أن الله حاشاه شيخَ كُتَّاب بيده عصا يقرع بها هذا وذاك؟ إنكم إن قلتم إن الله انتقم لنا، فإنكم تدينون الله حاشاه في عدم انتقامه من أمور أعظم.

ثم صمت الراهب فأشرق علينا سكونٌ بهيٌّ كالإيمان لولا أن أصوات المراكبية وركاب السفينة وخفق الأشرعة مزق ذلك البهاء. وأخيراً اقتربنا من قبرص حتى صرنا نرى أشجارها وطيورها والسفن الراسية في مينائها الصغير ونكاد نسمع صوت ارتطام الأمواج بالصخور وحفيف الأوراق حين تهب عليها نسمات البحر.

أنهى المترجم العجوز جملته الأخيرة وبقي ينتظر خادمه يونس حتى رآه يفرغ من التدوين دون أن يرفع رأسه من الورقة، فخاطبه مشفقاً: "كفى يا يونس. لقد أسرفنا اليوم في الكتابة. جفف القلم وارفع الدواة واذهب للنوم".

كان يونس مرهقاً حقاً فلم يعقب على أمر الترجمان العجوز، بل نهض حاملاً الدواة بعد أن أقفلها ووضعها في مكانها ثم مضى إلى غرفته تاركاً مولاه ينسج بنول خياله بسطاً لتضطجع عليها حكايات يوم الغد.

أطفأ الترجمان العجوز السراج والشمعتين واندس في فراشه ليغفو حين فاجأ المطرُ زجاجَ النافذة الملونَ بنقره الحنون فقال في سرّه:

المطر سرٌّ تعجز الغيوم عن كتمانه.

*****

الفصل الرابع

I- سراج الدرويش

قضت الغيومُ الليلَ كله وهي تبوح للقرية وما حولها بأسرار العشق الصريح بين الشمس والبحر. وحين غادر يونس غرفة مولاه وأوى إلى فراشه، استأنس بوشوشة القطرات على مسامع نافذته، فقال لنفسه بحبور:

ما أجمل لغة السماء. لا يحتاج المرء إلى ترجمان ليفهمها.

ثم خطفته الأحلام إلى نهرها الهادر فجرفت زورق خياله بعيداً عن شطآن اليقظة.

وحين أفشت الغيوم أخيراً كل ما عندها من أسرار، شعرت براحة عميقة وخفة لا مسبوقة فاستسلمت لأنامل الريح تداعبها وتدفعها بعيداً صوب الشرق، حيث كانت الشمس أيضاً تحكي للأفق قصص النور والظلام بلغة السماء. استيقظ المترجم العجوز باكراً فرأى أن يونس قد سبقه وأضرم في الموقد ناراً رائعة المنظر ثم وقف عند النافذة يراقب آثار المطر. التفت يونس

حين شعر باستيقاظ مولاه وقال معتذراً:

عمت صباحاً يا مولاي. أيقظتك جلبتي أليس كذلك؟

عمت صباحاً يا يونس. كلا لم توقظني جلبتك اللطيفة، بل أيقظتني هذه السماء التي كانت تتكلم مطراً ثم أحجمت عن الكلام. يبدو أن الغيوم سردت كل ما في جعبتها من حكايات.

أجل يا مولاي. السماء الآن صافية ولا أثر إلا لغيوم تائهة.

هكذا كانت قبرص حين وصلناها بعد ساعات عديدة قضتها السفينة الهولندية وهي تمخر العباب.

كان خيال الترجمان العجوز لا يزال يطفح بالحكاية حين استيقظ صباحاً، فنهض من فراشه سريعاً، بعد تلك المحادثة القصيرة، وغسل يديه ووجهه ثم تناول مع خادمه الفطور وجلس أخيراً على كرسيه قريباً من الموقد. أما يونس فقد أحضر كعادته الدواة ومفرشة الأقلام ووضع المرملة بجانبها وفتح غطاء المحبرة وغمس فيها القلم ثم نفضه مرتين متتاليتين وبقي ينتظر الإملاء.

قال الترجمان العجوز حين رأى خادمه على أهبة التدوين: "غادرنا السفينة التي رست في قبرص ونزلنا مع أمتعتنا إلى بر الجزيرة يقودنا الراهب الذي بدا أنه حفظ دروبها درباً درباً فأخذنا إلى نزل بحري صغير كانت تصدح فيه أنغام موسيقى راقصة وصيحات لبحارة ومسافرين تلمع حبيبات العرق على جباههم يرقصون على أنغام آلة كانوا يسمونها بوزوكي. هناك انضم إلينا شاب في مثل عمرنا رأيناه في هيئة غريبة قليلاً، فقد كان يلبس قلنسوة طويلة على رأسه وسترة بدون أكمام فوق سروال واسع يلتف على خصره ما يشبه زناراً غليظاً من القماش المخطط. سرعان ما استقبله الراهب بترحاب كبير

وعانقه ثم قدمه إلينا قائلاً:

هذا أخوكم شمعون، سرياني قادم من طور عابدين في ولاية ديار بكر.

صافحناه واحداً إثر الآخر فيما تكفل الراهب بتعريفه بنا باقتضابٍ اقتضاه الموقف ثم جلسنا، نحن الخمسة، إلى كراسيّ من القش تحيط بطاولة صغيرة تظللها سعوف النخيل وأوراق شجر الموز وهو مما يكثر زرعه في تلك الجزيرة.

وما إن أخذ كل منا مقعده حتى طلب لنا الراهب الماروني غداء كان عبارة عن باذنجان محشو باللحم المفروم مطبوخٍ على الجمر مع رؤوس بصل صغيرة مشوية على الفحم وقطع خيار مملح باللبن الرائب يسمونه التساسيكي باليونانية وهو ما نسميه نحن الجاجيق.

حين انتهينا من الفطور نهض الراهب وسار غير بعيد ثم ناداني من دون جميع الفتيان وقال: "يا يوحنا.. تعال إلى هنا قليلاً فلي معك حديث قصير".

نهضت عن الكرسي وتوجهت إليه فيما لاحقني الباقون بنظرات الريبة والفضول. حين وصلت إليه رأيته يبتسم بحنان أشرق له محياه وما لبث أن قال: "يا ولدي إن الدين يُسرٌ، ولقد أباح لكم شرعكم قصر الصلاة وجمعها في الأسفار، فإن كنت تريد أن تصلي الظهر والعصر جمع تأخير فلك ذلك. أترى ذلك الكوخ؟"، وأشار بيده إلى كوخ صغير قريب يصيبه رذاذ الموج، وواصل قائلاً: "إذهب هناك وولِّ وجهك شطرَ تلك النخلة الباسقة فهي تشير إلى القبلة".

تعجبت من هذا الكلام الدقيق عن الصلاة والقبلة وأطرقت برأسي غير قادر على الكلام فابتسم الراهب مرة أخرى وقال ممازحاً: "إن كنت تحبذ صلاة الجماعة فيمكنني أن أؤمك أو تؤمني إن شئت!". ابتسمت بدوري 3كل فريق

يدعي أنه منهم لما رأوا فيه من الاستقامة والأخلاق العالية والتعفف. لم يكن يشبه الدراويش الآخرين ممن تراهم في أسمال بالية تفوح منهم روائح منفرة، شعث الشعور يستلقون نائمين في أفنية المساجد أو بجانب محاريبها ومنابرها ويشخرون، أو يرفعون الصوت في الأزقة والحارات يدَعون أنهم يذكرون الله أو يدقون باب كل ذي حاجة ومريض يزعمون أنهم وسطاء بين العبد وربه. لقد كان سراج صافياً كقطرة زيت أصابها ضوء مصباح. ألا يقولون إن لكل امرئ من اسمه نصيباً! أما سراج فقد كان له من اسمه النصيب كله.

وحين رأيته أول مرة، وكنت لا أزال في بداية عهدي في الرهبنة، يحاور طالب فقه مسلماً على باب الجامع الكبير في حلب ويقول له: "يا مسعود إن حديث (قل آمنت بالله ثم استقم) هو الدين كله"، عرفت أنه صاحب معرفة عميقة فانتظرت حتى فرغ من محاورته ومضى باتجاه القلعة. تبعته على مهل حتى حاذيته فألقيت عليه السلام. رد سلامي وهو يواصل سيره وحين التفت ورآني بثياب الرهبان ابتسم وقال: "قد سمعت ما قلته للفتى مسعود أليس كذلك؟

أنت جئت تسألني عن حقيقة الدين" قلت بلهفة: "نعم أيها السيد فهلا أفصحت!" فقال دون أن يتوقف أو يخفف من سيره: "الدين كله هو ما سمعت من محاورتي لطالب الفقه عند باب الجامع الكبير". قلت: "الايمان والاستقامة. سمعت هذا فأعجبني" رد الدرويش: "هذا كلام النبي محمد، وهو كلام كل نبي ورسول قبله ويجب أن يكون كلام كل من يدعو إلى الله بعده. الايمان ثم الاستقامة.

فلا يكفي أن تقول آمنت ثم ترتكب ما يحلو لك ظناً أن إيمانك يستر

خطاياك". قلت وأنا أتبعه: "لكن الدين أمور أخرى، عبادات وصلوات و.." قاطعني وهو يشير بيده إلى شجرة جوز كانت تلقي بظلها الوفير قدام باب القلعة: "إن مثل أولئك الذين يبحثون عن طريقة عبادة الله وأصولها كمثل رجل لا يعرف الجوز فلما وقعت بالقرب منه واحدة ألقاها في فمه وصار يزدردها ثم لفظها لمّا وجدها مرة.

ولو عرف ذلك الرجل ما في اللب من لذيذ الطعم لما فعل ذلك. إن السناجب والطيور العجماء أفضل من هؤلاء الجهال، لأنها ترمي القشر وتستمتع بطعم اللب" فقلت له: لكن يا مولانا لا بد من ذبائح وقرابين وتقدمات إلى الله، وكذلك.." فقاطعني مرة أخرى وقال بنبرة فيها قليل من الحدة: "إنك أيها الفتى لجوجٌ تريد المجادلة كثيراً. وربما كان في قلبك شيء من كراهيةٍ لحديث نبي المسلمين، لكن ألم يقل الرب في التوراة على لسان النبي يوشع: أريد رحمة لا ذبيحة؟

ألم يقل الرب سبحانه: لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهةٌ لي. اغتسلوا تنقَّوا، اعزلوا شرَّ أفعالكم من أمام عَينيَّ، كُفُّوا عن فعل الشر. تعلَّموا فعل الخير. اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم.

اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة! أيها الفتى النصراني هذا هو الدين كله، وهو كل دين ومن ابتغى وراء ذلك فلأنه لم يعرف الدين ولم يعرف الله".

لقد فتح ذلك الدرويش عيني على عالم فسيح الأركان رحيبٍ جداً من المعرفة والحب. وكنت قبل أن ألتقي به أظن أن الحقيقة الوحيدة هي ما عرفته ودرسته في الأناجيل ولقننيه القساوسة في عظات يوم الأحد. بمعرفتي للدرويش سراج عرفت أن الحقيقة بحرٌ لا تسعه كأس صغيرة، وسماء واسعة

لا يخفق تحتها جناحا طائر وحيد. بمعرفتي للدرويش سراج لم يبق في قلبي ذرة كراهية للأديان الأخرى والملل الأخرى وعرفت أن كل دين اجتهاد في معرفة الخالق ما بقي يحترم الروح البشرية ولا يدعو لسفك دمها.

وذات مساء، حين كنا نعود من دير الأربعين شهيداً في حلب بعد أن جادل قساً أرمنياً متزمتاً، قال لي: "أتعرف حكاية الضفدع والعصفورة يا بولس؟"

أجبت: "كلا يا سيدي" فقال: إسمع فسأرويها لك: زعموا أنه كان يعيش في إحدى الآبار القديمة ضفدع هرمٌ يقضي نهاره بالسباحة في ماء البئر الضحل بينما يقضي ليله في النقيق والتحديق في السماء. كان ذاك الضفدع سعيداً بعالمه الضيق يظن أن ماء البئر أوقيانوس كبير وأن ما يراه من فوهة البئر في الليل بنجمتين يتيمتين هي السماء كلها. وذات صباح حطت على حافة البئر عصفورة صغيرة بدأت تلهث وقد بدا عليها التعب والإرهاق الشديد.

ناداها الضفدع من أسفل البئر متعجباً: هيه أيتها العصفورة ما لك تلهثين؟

فردت العصفورة: "لقد قطعت أميالاً طويلة فوق البحر وأنا أطير في هذه السماء الفسيحة وما لهاثي إلا من أثر التعب". قال الضفدع غير مصدق: "بحر وسماء فسيحة؟ أنت تخرصين يا عصفورتي. ما السماء إلا ما أراه من فم هذه البئر وما البحر إلا ما أعوم فيه هنا" وهكذا يا بولس هي الحقيقة. إن حقيقة السماء عند العصفورة هي غيرها عند الضفدع. ولو كان للضفدع جناحان طار بهما لعرف سعة السماء ورحابة الأبحر. أما المرء فالعقل جناحاه يطير بهما في السماوات الفسيحة للمعرفة. وهذا هو مثل القس الأرمني العنيد بيدروس الحلبي الذي جادلته قبل قليل فهو يظن أن الدير الذي يلقي فيه مواعظه كل يوم أحد هو بيت الله الوحيد وأن الناقوس وحده يرن بالدعوة

إلى الله وأن الحقيقة نارٌ هو الوحيد القابض على جمرها غيرَ مدرك أن الله أكبر من أن تحتكره طائفة وأجلُّ من أن يسعه بيت من حجارة وأعظم من أن تضمه جهة في الأرض".

منذ تلك الساعة انجذبت إلى الدرويش سراج، وعرفت أنه رجل من رجال الله النادرين في هذه الأرض، فصرت أتبعه كثيراً ولا أفوت فرصة في سبيل ملاقاته والاستماع له حتى وبخني رئيس الأساقفة الكاثوليك في حلب وقال لي: "إن المسيح هو الطريق فلا تسلك في دروب معوجة واحذر من ذئاب في ثياب رعيان".

لكنني لم أكترث لتحذيره ولهجته الصارمة لأنني عرفت أن الدرويش سراج لا يزيد عما كان يدعو إليه المسيح، وأن إسلامه لا يمنعني من الجلوس إليه والتقاط الدرر العرفانية التي تلفظها أصداف الحقيقة القادمة من قاع بحر معرفته. وحين سافرت أول مرة إلى قبرص مع البطريرك طيب الذكر أثناسيوس الثالث دباس، التقيته قرب هذا الكوخ وكان يتحدث إلى ربان سفينة لتجار من مرسيلية. كان الربان المرسيلي يحمل في يده بوصلة كبيرة يوشك أن ينقلها إلى مركبه. اقتربت منهما وسلّمت فعرفني الدرويش وردّ سلامي بحرارة كبيرة ثم رأيته يواصل حديثه إلى الربان: "انظر إلى هذه البوصلة يا خواجة، انظر إليها يا بولس، انظرا إليها.

انظرا إلى هذه الإبرة، إنها تدل دائماً إلى جهة الشمال. إلى النجم اللامع في شمال السماء لأجل ألا يتوه البحارة والملاحون في مسالك اليم. وفي الإنسان أيضاً بوصلة لا تخطئ. إنها الفطرة. ألا إن قلب الإنسان وفطرته لا يدلان إلا على الله. ألا إن القلبَ بوصلةٌ والله شمالها وأيما قلب أنكر الإيمان فذلك

لخلل فيه". سكت الراهب وحدّق في الكوخ ملياً وكأنه يستدعي من قاع الذاكرة حديثاً أو حدثاً قديماً ثم واصل يغزل وبر الحكاية بمغزل الخيال فقال: كان الدرويش سراج يقضي نهاره في قبرص بالتحدث إلى النوتية والتجار وعمال الميناء والجنود وما إن تغيب الشمس وتغادر السفن حتى يخلو إلى هذا الكوخ يقضي ليله في التأمل يصيخ السمع لموج البحر. ولقد دأبت على زيارته كلما سنحت لي الفرصة بالقدوم إلى قبرص فكنت أراه أحياناً للحظات قليلة يحدثني فيها على عجل ثم يمضي إلى سفينة متجهة إلى سميرنة أو الآستانة أو الإسكندرون أو غيرها من الموانئ.

التقينا ذات مرة على ظهر سفينة جنوية متجهة إلى الإسكندرون، كان يرتقي الحبال ويحدق في البحر لساعات ثم ينزل ويكلم المسافرين كلاماً غريباً. ومن غريب كلامه علقت بذاكرتي جملٌ كالقناديل حفظتها واعتبرتها دليلي إلى فهم العالم ومعرفة الرب سبحانه وحقيقة الأديان، فقد قال لي: "يا بولس إن الدين ترياقٌ لكنك لو زدت في مقاديره أو جهلت به أصبح سماً".

وقال لي: "التطرف في الدين كالتطرف في الكفر كلاهما جالبان للضرر". وقال لي: "حين يكف الرهبان والقساوسة والشيوخ والمفتون والكهنة عن أن يكونوا نواباً للرب وناطقين باسمه سيعم السلام بين الأديان".

وقال لي: "يا بولس احفظ عني هذا الكلام، إن مثل من يدعي أنه على حق دون غيره من الخلق، كمثل الخنفساء السعيدة بكرة الروث تظن أنها تدحرج كنزاً". وقال لي حين رآني حزيناً على فقد أمي: "لا تحزن على فقيد ولا تخف الموت فما هو إلا الوجه الصامت للحياة". وقال لي: "الموت حالٌ والوجود مقام". ومن عميق حديثه ما كرره على مسمعي لمرات كثيرة قوله: "الحرية

متن كبير له هوامش وحواشٍ صغيرة كثيرة، وهي ليست هامشاً لمتون أخرى".

وحين ساءت أحوال الموارنة قبل اثني عشر عاماً وحدثت لهم أمور مع الحماديين في لبنان، كان الدرويش سراج يتنقل بين قرى هذا الطرف وذاك يدعو للسلم ويحذر من سفك الدماء. حتى لقد رأيته ذات مرة يخطب في جمع من القرويين حملوا فؤوساً لمقاتلة أهل قرية مجاورة على غير دين الأولى: "ويحكم أيها الناس. هلا نظرتم إلى وجوهكم في المرآة! تالله إنكم -وأنتم تحملون هذه الفؤوس- لأقرب لسباع البراري وجوارح السماء من الإنسان الذي خلقه الله بيديه وأنشأه على صورته. ألا ويحكم وويح بطون حملتكم".

وحين تقدمت به السن صار يهذي بكلام يشبه كلام المحمومين ويتكلم بكلمات يسميها بعضهم شطحاً، لما في ظاهرها من مروق وإيهام بالكفر، لذلك أشاع عنه الناس أنه خرف لكن كثيرين من الفقهاء اتهموه بمعاداة الشريعة والخروج من كنفها. وكانت هذه التهمة سبباً في سجنه في حبس القلعة سنتين ثم نفيه من حلب.

ثم غرق الراهب في صمت ثقيل وصار يحدّق في الموج الذي أثارته نسمات البحر، فرجوته أن يكمل لي بقية قصة الدرويش سراج، لكن خروج رفاقي من البحر وتوجههم إلينا بعد أن لبسوا ثيابهم حال دون ذلك ووعدني بسردها في أقرب فرصة سانحة. لم نُؤتَ تلك الفرصة في قبرص ليسرد الراهب بقية القصة فعللت نفسي بأمل أن تتاح حين وصولنا إلى روما، لكن السنوات مضت وبقيت القصةُ غصةً في قلبي، ولم أدر ماذا جرى لذلك الرجل المستنير الدرويش سراج.

*****

II- إلى روما

اشتدَّ في الخارج صفيرُ الرياح المشغولة بكنس الغيوم فكفَّ المترجم العجوز عن سرد القصة مشفقاً على الخادم الألباني يونس حين رآه ينفض يده مراراً دفعاً للخَدَر بعد كل صفحة يدوّنها وقال له هاشّاً: "أظن أنني بالغت في السرد هذا الصُّبح حتى ضجرتَ. ها قد سرت إلى أناملك اللطيفة عدوى نقرسي اللعين".

قال يونس: "لا يا مولاي ما بالغتَ في سردك ولا ضجرتُ. لكني شعرت بقليل من البرد، فهلّا أذنت لي برمي بعض الحطب في الموقد؟". أجابه المترجم العجوز موافقاً:

أجل يا يونس جدد الحطبَ واعذرني فلقد أخذتني الحكاية بعيداً كما تأخذ هذه الريحُ تلك الغيومَ.

ثم ذهب يونس ليأتي بالحطب ولما عاد وفي يديه حزمة منه، قال له:

إعلم يا يونس أن الخيال وعاءٌ يكاد ألّا يكون له قرار وهو يسع ما لا يحصى من الحكايات، لكنك إن لم تفرغه مثلما تفرغ الموقد من الرماد كل مرة لانسدت منافذه وما اتّقد ثانية.

أجل يا مولاي هو كذلك. وكل طرس من هذه الطروس وعاء من ورق يحفظ جمر الحكايات متقداً.

قال يونس وأوقد النار. أعجب المترجم العجوز مرة أخرى ببلاغة خادمه، وكرر على مسامعه جملة قال ما يشبهها من قبل:

سأعلمك اللغة الإيطالية يا يونس. أنت فصيح كهذه النار.

اتخذ يونس مجلسه من جديد حيث يكتب، مغتبطاً ومأخوذاً بإطراء مولاه، فرفع القلم ونقر الأوراق يلقي عنها الرمل وأخذ قرطاساً جديداً وتهيأ للكتابة بعد أن كتب كلمات الصفحات التالية في الزاوية اليسرى للصفحات السابقة، حيث كان قد تعلم هذه الطريقة من الترجمان العجوز الذي شرح له أن الكتّاب ينجون هكذا من خلط القراطيس أو ضياعها حين يتم تجليدها أخيراً. لمعت النار التي أوقدها الخادم، مثل حكايتين، في عيني المترجم العجوز الذي واصل السرد بنفس نبرة الصوت حين أملى ما سلف من حكايات فقال:

بتنا ليلتنا في النزل البحري الصغير على ضوء قنديل جلبه جرجس معه من القاهرة. شربنا حليب الماعز مع العسل والخبز ثم تجاذبنا، شمعون النصيبيني وسابا الزجال وجرجس عبد المسيح وأنا، أطراف حديث متقطع لا يربط حباتِه خيطٌ ولا يضم نهرَه ضفافٌ ولا يجمع ورقاتِه غلاف. كان رفاقي مشغولين بالحديث عن قراهم ومغامراتهم في سني الطفولة والاستماع لهذر جرجس الذي كان مضحكاً، أما أنا فلم يشغلني إلا غياب بولس الراهب

وشعرت بالوحشة فخرجت خلسة من النزل وصرت أرقب الأرجاء الملفوفة بحرير الليل الأسود وأنسام البحر وحديث الموج. بقيت ما يقرب من ساعة أتأمل ثم رأيت شخصاً يحمل فانوساً يأتي من جهة كوخ الدرويش سراج. تخيلت لبرهة قصيرة الدرويش سراج وقلت في نفسي: "ترى أيكون من حظي أن يظهر لي هذا الرجل المبارك فأقتبس منه شعلة المعرفة كما سبقني إلى ذلك هذا الراهب الماروني؟". وبينما أنا غارق في هذا الخيال، اقترب مني الرجل الخارج من الكوخ ورفع الفانوس إلى مستوى وجهه لأراه ويراني. وكم دهشت حين رأيت أمامي الراهب الماروني بولس وقد أشرق وجهه بنور غريب. ولما علم مقدار دهشتي قال لي: "إن الله يتجلى في الأكواخ المطلية بالسخام أكثر مما يتجلى في معابد مشيدة بالرخام". ثم تقدمني صامتاً صوب النزل البحري الصغير.

*****

مع شروق الشمس استيقظنا جميعاً إلا جرجس المصري الذي نهض وقال حين أيقظه شمعون: "هل داس حمارٌ خصيتيك أيها الديك؟" ردَّ شمعون والجِدُّ يعلو سيماه: "لا وقت للهذر يا جرجس. بعد قليل ستقلع السفينة إلى روما وعلينا أن ننزل إلى الميناء الآن".

فرك جرجس عينيه السوداوين بسبابتيه ثم قام فجمع حقيبته على عجل وخرجنا فتناولنا بيضاً مسلوقاً وجبناً وزيتوناً ثم نزلنا إلى الميناء نتبع الراهب فرأينا سفينة عظيمة ذات ثلاثِ صوارٍ سامقة وسلالم من أمراس وقلوعاً كثيرة، وكانت محملة بأقطان وأصواف ونبات أشنان عرفنا فيما بعد أنها بضاعة تجار جنويين ستتوقف سفينتهم في الميناء القريب من روما لتنزل مسافرين قادمين

من بلاد المشرق ثم تمخر إلى جنوة في الشمال الإيطالي.

كانت سفينة بلاك بيرل لا تزال راسية في الميناء حين صعدنا إلى سطح سفينتنا الجنوية المثقلة بأحمالها، وحين التفت ورائي رأيت الطبيب الإنكليزي واقفاً قدام الخواجة مارتين الذي كان يفتح فمه لمرات عديدة حتى إنني استطعت في ضوء الصباح المبهر أن أميز إصبعي السبابة والإبهام يمدهما الطبيب الإنكليزي إلى داخل فم الخواجة ويمسك لسانَه بهما. ولولا صياح الجدافين أسفل السفينة لسمعت ما يقوله الطبيب الإنكليزي لمريضه. لم تهب الريح الشرقية كما كان الملاحون يعللون النفس، وكم دهشنا حين رأينا السفينة رنَّقت ودارت حول نفسها دون أن تسير إلى الأمام. بقيت الأشرعة مرتخية وصرنا نخاف ونمسك بحواف السفينة الدائرة حول نفسها ثم نزلنا السلالم إلى الأسفل هلعين. حين رآنا الراهب على تلك الحال سار إلينا مبتسماً يقول: "هل خفتم أيها المباركون؟ يبدو أنكم لم تركبوا البحر كثيراً. يحدث هذا حين تكون السفينة راسية في الميناء، وعندما يحل النوتية المراسي تتحرر السفينة وتدور قليلاً بتأثير ثقلها، وقد تهب عليها ريح يعرفها الملاحون تدير السفينة دون أن تدفعها للأمام. إننا سنتعرض خلال رحلتنا إلى رياح عديدة وأنواء مختلفة لكن معنا الله فلا تخافوا". أدخل حديثه ذاك بعض الطمأنينة إلى قلوبنا، لكننا بقينا في الأسفل مع أمتعتنا إلا شمعون النصيبيني فقد صعد معه إلى الأعلى وهو يشد قلنسوته الطويلة على رأسه.

كان لا بد لسفينة جنوة أن تنطلق في موعدها، هكذا هم الجنويون، إنهم فرسان بحار يسافرون ولو كانت العاصفة قائمة في بطن السفينة ذاتها. ولقد علمهم طول عهدهم بركوب البحر وكثرةُ المُكْث على ظهر المراكب واجتياز

الأهوال أن يتحايلوا على الأنواء ويخرجوا منها بأقل الأضرار. وحين بقيت سفينتنا رهينة الميناء وطال انتظار الريح الشرقية المتوقعة دون طائل، لجأ القباطنة إلى الجدافين الذين صاروا يرطمون ويرفعون أصواتهم المتناغمة التي ما كنا نفهم منها شيئاً. وما كادت تمر دقائق حتى رأينا السفينة تتخذ مجراها في البحر وتتقدم مبتعدة عن الميناء وهي ترفع راية بيضاء كبيرة في وسطها صليب أحمر، فيما كان هلال المسجد الصغير بجانب الميناء يصغر رويداً رويداً.

أخذ قلبي ينقط حزناً من جديد.

الفصل الخامس

I- شمعون النصيبيني

لم يكن رفاقي الآخرون أقل حزناً ووجوماً مني وهم يحدقون في الشرق الذي كنا نبتعد عنه. وقد لاحظ الراهب بولس صمتنا والأسى الظاهر على مُحيًا كل واحد منا فطلب أن نتوجه معه إلى مقدمة السفينة على السطح. وحين استقر بنا الحال هناك رغب في أن يُسَرِّيَ عنا فقال: "بيننا وبين الوصول إلى روما مسافة أيام عديدة، وسنقضي هذه الأيام بالتأمل والحديث المفيد وبعض الأمور الأخرى. ثم التفت إلى جرجس مبتسماً وقال: "ونسمع بعض نوادر أخيكم جرجس أيضاً، لكنني أستحسن أن يعرِّف كل واحد منكم عن نفسه ويحكي قصته".

قلت في نفسي: "وماذا سأحكي عن نفسي أيها الراهب؟ أنا المسلم أباً عن جد، أنا الذي صعقتني بتسميتك إياي يوحنا الأنطاكي ثم أرسلتني إلى الصلاة في كوخ الدرويش سراج!

ماذا سأحكي لرفاقي عن نفسي وأنت تأخذني من بلاد الهلال إلى بلاد الصليب التي لا أعلم ما ينتظرني فيها ولا كيف سأعيش مع هذا الاسم الجديد دون أن أصبح نصرانياً! أية مفازة تريد أن أسير فيها أيها الراهب الغامض، أيها الراهب المجنون؟

أأكشف إسلامي وأكذبك أم أخفي ديني لئلا أهتك سترك؟ أأعتبرك محتالاً ضحكت على أبي واستغللت حلمه أم أعتبرك رجلاً صالحاً يريد لي ولأبي الخير دون أن ينظر إلى ديني؟".

وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيته يشير إليَّ من بين الجميع ويقول: "رفيقكم هذا، الذي سميناه يوحنا الأنطاكي، سيبدأ حكايته أولاً". لم تكن دهشة رفاقي بأقل من دهشتي فبقينا لدقائق معدودات ننظر إلى بعضنا دون أن يتفوه أحدنا بكلمة واحدة.

لا أدري من أين جاءتني الجرأة لأرد على الراهب قائلاً: "سأسرد قصتي أيها المبارك بشرط أن تحكي لنا لماذا سميتني يوحنا وأنا لست يوحنا ولست نصرانياً!". فغر رفاقي الثلاثة أفواههم مدهوشين وجحظت أعينهم، دون أن يتكلموا فيما بقي الراهب على هدوئه ووقاره، وقال: "تعلم يا بني أن فقهاء الدولة العثمانية ومفتيها لا يبيحون للمسلمين السفر إلى ما يسمونه دار الكفر ولا يقبلون إقامة المسلم بين ظهراني المشركين. ولما كان والدك شديد الحرص على إيفادك إلى بلاد الفرنجة مع هذه البعثة الطيبة لتعلم اللغات، ومتلهفاً لقيامك بترجمة كتب المعرفة إلى العربية وعازماً على أن يجعلك من مترجمي قناصل حلب وباشواتها فقد خدمته هذه الخدمة فضممتك إلى هذه العصبة الصغيرة وتحايلت بأوراق غير صحيحة على مفتشي السفن. أما الآن فلك أن

تكشف اسمك السابق ودينك السابق وملتك السابقة".

شعرت بنفسي وكأنني أهوي في وادٍ سحيق ولم أستطع التكلم للحظات قصيرة شعرت بها ثقيلة طويلة حتى سمعت صوت شمعون النصيبيني يقول: "سأبدأ بحكايتي قبل أخينا..."، ونظر إليَّ منتظراً أن ألمح إلى اسمي الصريح فقاطعه جرجس ضاحكاً: "الذي اسمه على الورق يوحنا الأنطاكي".

ابتسمت بحزن واستحسن الراهب، لما رأى ذهولي، اقتراحَ شمعون الذي رأيت فيه حبلاً تدلى إليَّ أنا القابع في بئر الحيرة.

لست أدري ما الذي أثاره خبر كوني مسلماً في نفوس أولئك الفتية النصارى الذين جاؤوا من أصقاع البلاد العثمانية! ولم أستطع أن أقرأ السطور التي حبَّرتها الدهشة على ملامحهم، وربما ما همَّهم أنني مسلم أو غير مسلم وسرعان ما استند شمعون بكلتا يديه من وراء ظهره إلى حافة السفينة، ثم استقبلنا يحكي فقال: أنا شمعون بن خوشابا، ولدت في تلكيف شمالي مدينة الموصل سنة اعتزل البطريرك يوسف حياة البطريركية في مدينة آمد قبل ستة عشر عاماً فخلفه يوسف الثاني من آل معروف.

حينها كان البطريرك شمعون الثالث عشر متربعاً على كرسي البطريركية في قدشانس ببلاد حكاري، أما البطريرك إيليا التاسع فقد كان وقتها يرعى شؤون ملته في دير الربان هرمزد في القوش التي تبعد عن الموصل تسعة فراسخ شمالاً.

عشت طفولتي في قرى الموصل إلى تخوم حكاري شمالاً وإربيل شرقاً وأنا أتنقل مع أبي خوشابا، الذي سماه أهل القرى تاجر المرايا، أعرض معه ما تحتاج إليه كل عروس في بيْتها الجديد من حناء وقرمز ومرايا وكحل ومكاحل

ونورة تزيل الشعر وعطر ومناديل وجوارب وأثواب وقلائد.

كان أبي، وكنت معه، نصادف في رحلاتنا يهوداً ومسلمين ويزيديين وصابئة، عرباً وأكراداً وتركاً، نصطدم بلغات وأديان كثيرة تتصادم هي أيضاً في بعض الأحيان.

وكان أهل القرى يحبون أبي كثيراً، أما أنا فكنت أساعده بعرض البضاعة والنداء عليها والدخول إلى بيوتٍ ما كان لأبي أن يدخلها ولا كان لنساء تلك البيوت أن يخرجن للتفرج على البضاعة كبيوت الأعوان والآغوات والشيوخ. في تلك الأعوام لم تكن أمور الرعية بخير، فقد أوغل الشقاق في الكنيسة وتجاذبت خرافَ الرب مذاهبُ شتى فأصبح الأخ عدو أخيه، وابن العم يتهم ابن العم بالكفر وصار الدين مجرد بضاعة يدعو إليها تجار في ثياب قساوسة ورهبان حتى خيف على الخراف من هجمات الذئاب.

لم يكن أبي رجلاً تهمه الإحن المذهبية ولا تشده مواعظ الأساقفة في الأعياد الكبرى، لكنه كان طيب القلب جَمَّ الحنان لا ينظر للمرء إلا من خلال كلام لنبي الإسلام سمعه ذات يوم جمعة من خطيب على المنبر في قرية كردية فصار يردده على مسامعي ومسامع أمي ومسامع زبائنه كل مرة قائلاً: الدينُ المعاملةُ.

وقد سمعته يقول ذات مرة لتاجر بغدادي استحسن خلق أبي ومعاملته لكن عاب عليه دينه: إن سَرَّتك معاملتي فلن تسوءك عقيدتي.

ولما عصفت بكنيسة المشرق رياح الفرقة وصار كل شماس أو قس يدعو إلى مذهبه ويسفه الآخرين وصرنا نرى قادمين من بلاد الفرنجة يأتون ويروحون ولا يتركون وراءهم سوى الخلاف حتى بات أبي ينعتهم بأنهم أسافين روما، بدأ أبي يدعو أهل القرى التي يمر بها إلى عدم الالتفات إلى المبشرين الفرنجة

ولا إلى المسيحيين القادمين من روما لأنهم على قوله يدنسون كنيسة الرب ويقتادون خرافه إلى مسالخ الهرطقة.

ولقد تأثرت تجارته كثيراً وكسدت سوقه وكنت شاهداً على انحدارها لما قاطعه المسيحيون من أبناء المذهب الكاثوليكي وصار أهل القرى ينعتونه باللوثراني البغيض، بل وبخه القساوسة والشمامسة قائلين: "أنت مجرد تابع للكنيسة وخروف ستضل إن لم يقدك الراعي إلى جادة الحق فلا تخض فيما هو ليس من شأنك".

لم يسمع أبي كلام هؤلاء، بل صار يرفع الصوت عليهم أحياناً ويقول: "ومن جعلكم نواب الرب ورعاة خرافه؟".

في نهاية الأمر وجد أبي نفسه مفلساً لا يملك شيئاً فضاقت علينا الدنيا وأراد أبي انتقاماً من الملة أن يلوذ بالإسلام ويرتد عن الدين المسيحي وقرر الرحيل إلى العمادية، وهي بلدة يسكنها أكراد مسلمون فاسودت الدنيا أمام ناظري وخفت أن يُكرهني أبي على الدخول في الإسلام معه فذهبت إلى قسيس قريتنا عبد يشوع وعرضت له القضية بحذافيرها.

لم تنفع كل محاولات القسيس في ثني أبي عما عزم عليه، لم تنفع أبي مئاتُ الأمثال التي رواها القس له، لم تنفع عظاتُ يوم الأحد التي رافقته أمي إليها ولا نفعت نصائح الأقرباء، بل رأيناه يمضي أكثر حين حلف بجميع القديسين أنه سيطلق أمي ما لم تحذُ هي أيضاً حذوه.

كان تيهاً مرعباً أدخلنا فيه أبي ولم نستطع الفكاك منه. في نهاية الأمر أعلن االقسيس عبد يشوع أن الشيطان ركب خوشابا بن دنحو وقال لنا ذات مساء يائساً حزيناً وغاضباً: "ماذا يصنع الراعي إن كان يرد بالخراف الضالة رأس

النبع وهي تأبى!".

أما أمي المسكينة فقد نذرت أن تمشي حافية صائمة حتى دير الربان هرمزد إن ثاب أبي إلى رشده، لكنه لم يثب إلى رشده، بل فقد عقله وصار الناس يضحكون عليه وعلى كلامه حتى قرر القس ربطه في قبو الكنيسة لأجل معالجته وطرد الشيطان الذي تلبسه ثم النظر في أمره. لم تعد أمي تطيق حياتها بعد أن جُنَّ زوجها وبات الناس ينعتونني في كثير من الأحيان باسم شمعون بن خوشابا المجنون.

حينها لجأت أمي إلى دير للراهبات بينما أرسلني القس إلى طور عابدين شرقي نهر دجلة وماردين لألتحق هناك بدير الزعفران، حيث سلكت سبيل الرهبنة وأنا في العاشرة من العمر.

كنت حزيناً جداً على ما آل إليه أمر أسرتي الصغيرة، لكن شظف العيش وقسوة الحياة وثقل العبادات والتأمل والعمل لساعات طويلة في الدير أنساني ما أنا فيه من حزن، بل نسيت أمي المترهبة وأبي المجنون. ولقد بقيت على تلك الحال، أقضي أوقاتي بالدرس والمطالعة ونسخ الكتب السريانية النادرة في بعض الأوقات وسقاية الشجيرات المتناثرة حول الدير مع رفاقي وقطف الأعشاب للطبخ والعلاج، حتى جاء إلينا ربيعُ هذا العام وجاء معه قسٌّ من لبنان يطلب فتياناً لإرسالهم إلى روما بغرض تعلم اللاتينية والإيطالية.

ولما كنت أجيد اللغة الكردية والسريانية وأجدت العربية في دير الزعفران، فقد وقع اختيار رئيس الدير عليَّ وشملتني العناية الإلهية فوصلت إلى قبرص سالماً قبل أيام.

كانت عينا شمعون مغرورقتين بالدموع خلال سرده حكايته لكننا لم نجده

يذرفها لأنه ما إن انتهى من قصته حتى طأطأ رأسه قليلاً فمالت قلنسوته الطويلة وظللت نصف وجهه الحزين.

كنت أنا ورفاقي نصغي إليه صامتين مذهولين من كلامه الذي لا يتلفظ به سوى الكهول.

كان كلاماً محكماً أكبر من عمر فتى في السادسة عشرة من العمر جعل الراهب بولس يصغي باهتمام بالغ إلى القصة حتى نهايتها ثم غرقنا جميعاً في الوجوم.

وحدها السفينة لم تصمت، بل واصلت سرد قصتها برتابة بالغة للبحر فيما كانت الريح الشرقية تثرثر للأشرعة والصواري وتحكي بصخب واحتفال يليق بسفر فتيان جمعهم راهب ماروني غامض من بقاع شتى ليأخذهم إلى روما ويعيدهم، كما يخطط، بعد سنوات مترجمين للكتب النفيسة أو لدى قناصل الأوروبيين في البلاد العثمانية أو حتى لدى الباب العالي في اسطمبول.

نظر بولس الراهب في وجه شمعون الحزين ثم جال ببصره على صفحات وجوهنا يقرأ الحزن الذي تركته قصته فقال:

"لن تنمو شجرة الدين إن شققت جذعها إلى نصفين بفأس المذهب".

لم يرد أحد، وبقينا غرقى وجومنا نحدّق في الشواطئ الشمالية البعيدة فيما ندفع عن وجوهنا الرذاذ المالح الصاعد إلينا من البحر الذي كانت السفينة الجنوية تشقه كمحراث.

II-جرجس عبد المسيح

انتهى المترجم العجوز من حكاية شمعون النصيبيني ثم أمر الكاتب الفتى يونس بالاستراحة قليلاً من نَصَبِ التدوين فقال:

فلترح سفينة كفك من الإبحار على هذه الطروس. أخشى أن تصاب مثلي بالنقرس اللعين. هاهو قد عاد إلى سلامياتي ويبدو أنك ستلجأ إلى أدوية كتب الطب كلها يا يونس. لكن لا بأس فقد أُمرنا بالتداوي.

قال المترجم العجوز جملته تلك مبتسماً فيما نهض يونس وهو يقول:

سأعمل لك يا مولاي مغلي الزنجبيل هذه المرة.

الزنجبيل؟ لم أعرف أنه علاج للنقرس فيما قرأته من كتب.

كانت جدتي – رحمها الله – تصنع منقوعه لجدي كل ليلة.

ابتسم المترجم العجوز بخبث وقال:

ربما كانت لجدتك فيه مآرب أخرى يا يونس. فللزنجبيل كما للجرجير فوائد

جمَّةٌ لعلل شتى غير النقرس. لكن لا بأس، سأتناول ما تصنعه يداك اللطيفتان.

صنع يونسُ المنقوعَ ثم وضع كأساً منه حلَّاه بالعسل على إسكملة صغيرة بجانب كرسي الترجمان العجوز الغارق في التأمل ممسكاً جبينه بكفه اليسرى مطبقاً جفنيه نصف إطباقة.

مضى ربع ساعة ومغزل الصمت يفتل خيوطه بين الفتى الألباني ومولاه الشركسي الأنطاكي وانشغل كل واحد منهما بما أمامه فمضى العجوز يرشف مغليّ الزنجبيل محدّقاً في الخارج المكفهر بينما راح يونس يرتب الورقات التي لم تنل نصيبها بعدُ من التدوين، أما نار الموقد فقد كانت تسرد للحجرة حكايتها الدافئة عن شجرة أثْلٍ حولتها الفؤوس قبل يومين إلى حطب يابس على أنغام ريح شبقة ما ملَّت من الهبوب تلاعب شجرة الكينا الكبيرة في وسط ساحة الدارِ بمجون سافر.

شعر الترجمان العجوز بالتعب وقليل من الاسترخاء بعد كأس الزنجبيل، فنزل من الكرسي وسار متئداً إلى بساط صغير من وبر الجمال أشبه بسجادة قرب سريره، تربع هناك قليلاً ثم مدّ رجليه واتكأ على وسادة عالية حشوها ريشٌ كثيفٌ وقال:

فلندوّن حكاية جرجس المصري قبل أن آخذ قيلولتي.

أنا رهن إشارتك يا مولاي.

ردّ يونس ثم غمس القصبة في المحبرة الفضية، وأخرجها تقطر حبراً ثم نفضها مرتين في جوف المحبرة ولما اطمأن إلى أن القلم على أهبة التدوين، كتب في رأس الصفحة اسم جرجس عبد المسيح وانتظر، ولكن لم يطل انتظاره سوى برهة خاطفة قال عقبها الترجمان العجوز: "أحزنتنا حكاية

شمعون النصيبيني وألجمت ألسنتنا إلا الراهب فقد روى لنا كيف أن بعثات البلاد الإفرنجية التي تدخل بلادنا تضر المسيحيين أكثر مما تنفعهم".

ثم قال وهو ينظر إلينا واحداً واحداً: "إن المشرق موطن المسيحية والإسلام واليهودية أيضاً وسكانها يفهمون دياناتهم بفطرتهم وليسوا بحاجة إلى من يأتيهم من وراء البحار ليرشدهم إلى جادة الحق، بل ربما كان لزاماً علينا أن نذهب نحن إليهم لهذا الغرض". لم يطل حديثه كثيراً، بل سرعان ما قال لجرجس: "حان دورك يا بني، لعل في حكايتك بعضَ مرحٍ يمحو آية الحزن التي تلاها رفيقك شمعون في حكايته. هات حكايتك يا ابنَ النيل".

قفز جرجس مثل الجندب وحل محل شمعون مستنداً مثله إلى حافة السفينة ثم صار يروي حكايته بوجه طافح بالسرور فقال: ولدت في صعيد مصر في قرية صغيرة في المنيا عند الجانب الغربي من النيل. النيل نهر عظيم لا يدانيه نهر في الدنيا.

تقول أمي إنني ولدت في شهر أبيب تحت شجرة جُمَّيز وافرة الفروع مثقلة بالثمار في مزرعة قصب السكر القريبة من قريتنا.

كانت أمي ذات الأربعة عشر عاماً حاملاً بي ولم تعلم أنها دخلت شهرها التاسع في الحمل.

أمي لا تعرف الحساب. وهي تخلط شهر بابه بشهر أبيب وتحسب عمرها حسب ما مرت بها من أحداث وأشياء غريبة لا يعرفها أحد سواها فهي تقول مثلاً: "أرضعتك مدة طويلة ثم فطمتك يوم اصطاد أبوك سمكة قرموط سوداء". وحين أسألها: "ومتى اصطاد أبي قرموطته السوداء تلك؟" ترد أمي: "حين بدأت الدنيا تبرد قليلاً وبدأنا نحصد القصب". فأقول مشاكساً:

"ومتى يبدأ موسم حصاد القصب يا أمي؟" فترد بثقة: " لما يقول توت للحر مُوت" وهي تقصد شهر توت أول الخريف.

كانت أمي تحصد القصب أيضاً لما جاءتها آلام المخاض فألقت منجلها الطويل وقالت لرفيقتها: "يبدو أنني تعبت وصار بطني وظهري يؤلمانني. سأرتاح في ظل الجميزة قليلاً وأعود إليك".

وما إن وصلت إلى جذع الجميزة الكبيرة واستندت إليها حتى شعرت بي أستعجل الخروج إلى الدنيا. لذلك كانت أمي تقول لي دائماً: " أنت عجول في كل شيء يا جرجس. حتى يوم ولدت وخرجت من بطني كنت على عجلة من أمرك".

وحين سمعت الفلاحات صرخاتها أسرعن إليها وعرفن أنها مقبلة على الولادة فتحلقن حولها وسترنها عن أعين الآخرين. ولدت بين حلقة من النساء تحت ظل شجرة كبيرة بالقرب من النيل. لذلك كان شماس القرية يقول لي حين يرى دأبي على مطالعة الكتب في الدير: "ولادتك مباركة يا جرجس. سيكون لك شأنٌ". لكن لم يمض عامان على ولادتي حتى مات أبي. كان يعمل في حصد سيقان القصب بمنجله الحاد كالسيف. روت أمي أنه كان في ذلك اليوم مشغول البال بولادة مولوده الثاني أي أختي الأصغر مني. وحين أراد أن يهوي بالمنجل على السيقان المضمومة في كفه اليسرى، أخطأ فأصاب معصمه. مرت شفرة المنجل على المعصم كأنها تمر على قطعة جبن ففصلت كف أبي المضمومة على ثلاث سيقان من القصب. أطلق أبي صرخة عظيمة لكن رفاقه كانوا بعيدين عنه. وحين وصل إليه أولهم كان قد نزف نصف ما في بدنه من دم. روى أحد الذين شهدوا موته أنه كان قد غرس ذراعه التي

فُصلت كفُّها في الأرض لوقف النزيف لكن ذلك لم يجده نفعاً فمات.

"ومتى مات أبي يا أمي؟".

"مات سنة طاف النيل، قبل ولادة أختك بأسبوع".

"ومتى ولدت أختي؟". "قبل البَصْخة المقدسة".

عشت طفولتي حتى التاسعة من العمر بين حقول القصب أخوض في الترع مع رفاقي مسلمين ومسيحيين وأذهب بصحبتهم مع الصيادين إلى ضفة النيل لصيد القرموط وننتظر موسم القصب لنشرب عصير السكر اللذيذ أو نبيعه للمسافرين على ظهر المراكب التي تجوب النيل. كان خالي الشماس قد كفلني بعد موت أبي، ولما رأى مني ميلاً للكتب أخذني، وكنت قد دخلت العاشرة من عمري، إلى دير بعيد يسمى دير أبو فانا القريب من بحر يوسف.

قال لي خالي ونحن في المركب الذي أقلنا من المنيا إلى بني سويف: "انظر يا جرجس لا أريدك مثل أبيك وأمك عاملاً في حقول قصب السكر إلى آخر عمرك. لقد مات أبوك في الحقل. لكن هذه عيشة لا يرضاها الرب لمن هو مثلك. أنت تميل للكتب وسآخذك إلى دير يعتني بك مثل كرمة حتى تنتج أفضل العنب". في دير أبو فانا بقيت ست سنوات أدرس الكتب القديمة وأواظب على حضور كل الصلوات ودفع غائلة الرمل عن الحجرات والأيقونات كلما هبت العاصفة. كان الرهبان هناك ينتظرون الظهور المقدس للعذراء فوق برج كنيسة الدير.

كل مساء كنا نحدّق بصمت في السماء لعل العذراء تظهر لنا. من جميع القرى كنا نرى المرضى والمحتاجين والمؤمنين كافة رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً وولداناً وهم يتوافدون على الدير ينذرون النذور ويشعلون الشموع

وينتظرون مثلنا ظهور العذراء. وذات يوم جاءنا قمص من الإسكندرية وصار يجالس رئيس الدير لساعات طويلة في خلوة غريبة.

كنا نتساءل فيما بيننا عن فحوى حديثهما الغامض حتى خرج علينا رئيس الدير ذات صباح قائلاً: "سيدنا القمص زَكَّا يريد تلميذاً نبيهاً في بعثة هامة. ولقد اقترحت اسم جرجس المنياوي، وصار ينظر إليَّ، لهذه المهمة".

حين عرفت أن المهمة هي سفر طويل إلى روما قد يدوم أربع سنوات استغربت وقلت لرئيس الدير: " كيف أذهب إلى ديار هؤلاء وهم يعتقدون أن الروح القدس منبثق من الأب والابن؟" فردَّ بحدة غير منتظرة: "ما لك ولعقائدهم يا جرجس؟ أنت لن تذهب لتصاهرهم بل لتتعلم اللغات وتطلع على علوم الكنيسة في روما ثم تعود إلينا بما يفيدنا".

لم أفرح كثيراً، بل خفت من هذا السفر المحفوف بالغموض. كان أكبر هاجس لي هو الظهور المقدس وقلت في نفسي: "أن أرى العذراء تظهر في هذا الدير الصغير أفضل من أن أذهب إلى روما وأحيط بكل علوم الدنيا".

وحين جاء خالي قبل أن أسافر، بثثت إليه مخاوفي وهواجسي فقال لي: "لا تخف يا جرجس، إن عقيدتك راسخة وإيمانك ثابت ولن يضر الذهبَ إن جاور فضة أو نحاساً. هناك ستتعلم اللغة اللاتينية فتطلعنا على كتبهم وحججهم وستفيدنا في مقارعتهم حجة بحجة وبرهاناً ببرهان. أما الظهور فإنك لا تعلم متى وأين يحدث ذلك".

حدث بعد ذلك كل شيء على عجل كما في الحكايات. ودّعت كلّ من في الدير ثم ذهبت إلى قريتي وودعت أمي وأختي الصغيرة وأهل القرية وأترابي وأقاربي. قالت لي أمي وأنا أودعها: "متى ستعود يا جرجس؟" فقلت لها

ممازحاً: "حينما يعود المركب" فأخذت كلامي على محمل الجد وسألت: "ومتى يعود المركب يا ولدي؟" شعرت بالحزن والشفقة عليها فقبلت يدها وقلت: "صلّي لأجل عودتي يا أمي. أنا لا أعرف متى سأعود".

لم أنظر إلى عينيها كي لا أرى دمعها ثم ركبت السفينة التي كانت تذهب إلى الإسكندرية، ومنها انطلقت إلى الإسكندرون حيث تعلمون بقية حكايتي".

انتهى المرح والضحك الذي استقبلنا به حكاية جرجس حين بدأها، إلى حزن ووجوم كالذي ران علينا حين انتهى شمعون من حكايته. كان صمتنا بحيرةً راكدة فلقها الراهب بولس بعصا كلامه فقال: "كثيرون يقضون عمرهم في انتظار ظهور السيدة.

كثيرون ينتظرون إشارات من الله ليقوى إيمانهم. لكن يا جرجس إن لم تظهر العذراء في قلبك فلن ينفعك ظهورها فوق برج كنيسة أو تحت شجرة جميز. الحقَّ أقول إن من له بصيرة سليمة محاطٌ بالظهورات الربانية الغزيرة في كل حين.

فلو تأملنا الآن مثلاً حالنا ونحن في هذا البحر تمخر بنا سفينة ذات أشرعة كثيرة تحت هذه الشمس الحارقة لشاهدنا كثيراً من التجليات. إرفعوا الحجب عن البصائر أيها الفتيان المباركون وسترون حتى لو كنتم عمياناً".

أنهى الترجمان العجوز جملة الراهب وقال بصوت منهوك: "لحياة المرء وجوه كثيرة يا يونس. إنك تنتظر من امرئ مرح مثلاً أن تكون حياته التي عاشها سعيدة وإذا به يفاجئك حين يسرد عليك بعضاً من فصولها كم عاش من أحزان". ثم أردف بوَهَنٍ: "بارك الله فيك. اذهب الآن وقل للخادمات يعددن الغداء. سأنام قليلاً".

III- سابا الزجال

كان غداء ذلك اليوم، من أشهى ما يتناوله المترجم العجوز وأقربها إلى ذوقه: أرزاً مطبوخاً بالسمن يزينه صنوبر محمص وبعض الزبيب وملوخية بلحم فراخ الدجاج ولبناً وليموناً. وكان هذا الصنف من أشهى أطباقه مذ كان صغيراً، وكانت أمه تعدّه لوالده كل يوم جمعة آن يعود من الصلاة حتى صار يوم الجمعة مقروناً لدى العائلة بالملوخية المطبوخة بلحم الفراخ.

وما إن فرغ المترجم العجوز وخادمه الشركسي يونس في ذلك النهار من تناول الملوخية ورفعت الأطباق حتى اتخذ كل واحد منهما مجلسه من جديد، المترجم العجوز للإملاء والخادم يونس للتدوين بينما كان الموقد الذي ألقى فيه يونس بعض الحطب صباحاً يستسلم لغفوته الرمادية رويداً رويداً. قال المترجم العجوز: حين انتهى جرجس المصري من حكايته وعقَّبَ عليها الراهب ببضع جمل، ذهب سابا من تلقاء نفسه إلى مكان جرجس وقال لفوره: أما أنا فلا

أعرف كيف أقص لكم حكايتي، لست بارعاً إلا في الشدو وإلقاء قصائد الزجل. لكنني سأفضي بما أعرفه عني كيفما اتفق. فإن لم تعجبكم حكايتي سأعوضكم عنها ببعض الزجل من جبل لبنان.

كان جدي الأكبر سابا، طفلاً يحبو حين هربت عائلته على متن مركب مالطي من جزيرة قبرص إلى جبيل قبل مئة وأربعين عاماً. وكانت تلك العائلة قد هربت بالأصل من جبيل إلى قبرص لما ساءت الأحوال في لبنان، وقد قرأت في كتاب البطريرك ذي الذكر الخالد إسطفان الدويهي أنه لما صار في بلاد الشام ضنك وضيق هاجر كثيرون ودخلوا بلاداً بعيدة. وأنه في مركب واحد دخل من بلاد جبيل إلى قبرص مئة وعشرون نفساً.

لقد ولدت سنة كان البطريرك خالد الذكر إسطفان الدويهي مختبئاً في مغارة بعيدة في وادي قنوبين هرباً من والي طرابلس.

وقد بقي بطريركنا المرحوم هارباً مختبئاً حتى ورد من الباب العالي في اسطمبول فرمان سلطاني يقضي بألا يتعرض أحد للبطريرك، وألا يطالب أحد ديرَ قنوبين بأكثر مما هو معين في الدفاتر القديمة.

ورثت الصوت الحسن من أبي، فهو زجال يتنقل في قرى كسروان ولا يكاد يسمع بزجال آخر حتى يشد إليه الرحال ويباريه في الزجل حتى الفجر. وقد كنت أرافقه في كل رحلاته مذ كان عمري خمس سنين وشاركت معه حين صار عمري سبع سنين في عرس ابن مختار قرية في الجبل. تعلمت منه أصول فن الزجل ومتى ينبغي أن يُمَدَّ الصوتُ ويُحبسَ الهواء في الرئتين حين يريد الزجالُ إطلاق الأوف في نهاية كل مقطع أو حين يستبد به الطرب.

إلى جانب التنقل بين القرى كان أبي يرسلني إلى الكنيسة لإنشاد ترانيم

القداسات الكثيرة وفي أيام الآحاد والأعياد. وذات مرة لمحني شماس قادم من روما....

توقف الترجمان العجوز حين وصل إلى كلمة روما، وقال لخادمه: "ضع نقطة بعد روما وابدأ ما سأمليه عليك الآن من أول السطر" ثم نظر إلى أصابعه بألم وصار يفركها إصبعاً إصبعاً وواصل الإملاء:

لم أستطع أن أستمرّ في سماع حكاية الزجال الكسرواني سابا حتى نهايتها. فلقد أصابني فجأة دوار فظيع وشعرت بأنني أغوص في الرمل وغامت الدنيا أمام عيني.

شعرت كأن جسدي كرة عجين ألقيت في تنور مسجور. أدرك الراهب بولس أنني لست بخير فقال لي بإشفاق: " يبدو أنك بحاجة إلى الراحة ولا تتحمل الوقوف في الشمس. غادر إلى بطن السفينة وانزل إلى العنابر. هناك ستتمتع بالبرودة وإن شئت فنم لبعض الوقت وستنتعش وتستعيد نشاطك إن شاء الله". لا أدري كيف وصلت إلى جوف السفينة البارد الظليل تاركاً سابا يحكي للآخرين قصته فاستلقيت على مقعد خشبي وتمددت عليه وغرقت في النوم. وحين استيقظت، كان المساء قد حلّ وأطبق الظلام فكيه على البحر.

رأيت سابا وشمعون وجرجس متحلقين حول رأسي ينظرون إليّ بحزن كما لو أنني مسجى في تابوت. كانت حرارة جسدي قد هبطت قليلاً، لكنني كنت خائر القوى أتصبب عرقاً. بادر جرجس بالكلام وسط صمت الآخرين فقال: "العرق دليل عافية. يبدو أنك رقيق لا تتحمل البحر وشمسه الحارقة. هل كان أبوك يعلفك خساً أيها الأرنب؟". ضحك الجميع من نعته لي بالأرنب، لكنني كنت واهناً لا قدرة لي حتى على الضحك فعمدت إلى

رسم ابتسامة استحسان وقبول للمزحة على محياي المرهق.

وحين ظهر الراهب أخيراً كان بعض النشاط قد عاد إليَّ.

في الليل، خرج رفاقي مرة أخرى، قبل أن يهجعوا، إلى ظهر السفينة وصاروا يتسامرون بينما بقي الراهب معي يجس نبضي ويتحسس جبيني ويضع عليه خرقاً مبللة بالماء ويسألني ماذا أكلت وماذا شربت فعددت له كل طعام أو شراب تناولته منذ ركوبنا في ميناء الإسكندرون وحتى تلك اللحظة إلى أن قلت له إنني في الليلة السابقة شربت حليب الماعز حين نمنا في النزل البحري بقبرص. قال الراهب: "هذه هي الحمى وهي تصيب كثيرين. وما عليك إلا أن ترتاح وتشرب الماء كثيراً". ثم غاب قليلاً وعاد يحمل معه كوز فخار ملفوف بالخيش الرطب مملوءاً بالماء البارد ودعاني لشربه فشربت شاكراً إياه على حسن رعايته.

لم أنم تلك الليلة إلا لماماً بسبب الحمى. كان رفاقي قد غرقوا في النوم بينما صار الراهب يتمتم بأدعية وصلوات كثيرة ميزت بينها جيداً آيات من القرآن ورقى وتعاويذ سمعتها من شيخ حلبي في إحدى القرى ذات مرة. زادت شكوكي في الراهب الغامض وأوشكت أن أعلنها له لكنني قلت لنفسي: " لن أشغل نفسي بحقيقة دينه الآن ولا بد أن يأتي يوم يحكي لي هو قصته من تلقاء نفسه". لم تبارحني الحمى تلك الليلة، بل كانت تأتيني حتى أتقلب في جمرها وأتصبب عرقاً ثم تتركني لتأتيني من جديد إلى أن لاحت تباشير الفجر فنمت أنا أيضاً.

بقيت أربعة أيام أعاني من الحمى، تروح وتجيء ولم أكن أخرج من جوف السفينة إلا عند غروب الشمس وحلول المساء حين تهب نسمات رخية

منعشة. لكنني كنت سرعان ما أعود إلى مكان نومي أستسلم للوهن الذي كان يمنعني من الوقوف على قدمي. في اليوم الخامس، وكانت السفينة قد وصلت إلى أطراف جزيرة رودس، مَنَّ الله عليَّ بالشفاء التام وتناولت فطوري مع رفاقي الذين ابتهجوا بعودتي إليهم وقال جرجس ممازحاً: "أنت محظوظ لأنك لم تسمع بقية حكاية سابا. اشكر الحمى التي منعتك منها، لأنك لو سمعتها مثلنا إلى نهايتها لألقيت بنفسك في البحر مللاً". وحين سألته ممازحاً أيضاً: "ولماذا لم يلقِ أحدٌ منكم بنفسه في البحر؟" رد ضاحكاً: "كنا ننتظر أن تصيبنا الحمى".

لقد سرد عليّ سابا الزجال فيما بعد حكايته كلها. هي لم تكن مضجرة كما زعم جرجس، لكن أزمانها وأماكنها كانت كثيرة ويتداخل بعضها في بعض حتى يقع المرء وهو يصغي إليها في تيه مسدود النهايات. لقد حكى لي كيف أن الشماس القادم من روما أعجب بصوته وقال لأبيه الزجال إن هذا الصوت الجميل يجب أن يتردد صداه في كنيسة القديس بطرس في روما وليس في قرية صغيرة بجبل لبنان. قال لي سابا إن أباه لم يكن يريد هذا السفر لولا أن الشماس أقنعه وقال له إن ابنك سيعود إليك ممتلئاً حكمة ومجداً عظيماً.

تذكرت، وأنا أستمع لبقية قصة سابا، أبي وحججه العجيبة في إرسالي ضمن هذه البعثة الغريبة. قلت لنفسي إما أن أبي مجنون زج بي في هذه المتاهة وأرسلني إلى بلاد الصلبان وقلعة الدين المسيحي أواجه مصيري وحيداً وأجابه المحنة عاري اليدين، وإما أنه يوليني ثقة زائدة ولا يخاف عليّ من هجر ديني وعقيدتي أو ربما لا يهمه ذلك، بل ذهبت في ظنوني بعيداً وقلت إن أبي ليس مسلماً أصلاً.

ما إن وصل الترجمان العجوز إلى هذه الجملة حتى بدا عليه الإرهاق فقال لخادمه:

يكفينا لهذا النهار ما سطرته أناملك اللطيفة يا يونس. لننتظر إلى الليل.

أمرك يا مولاي. فالليل وسادة الحكايات كما تقول لي دائماً.

أجل يا يونس. ما من حكاية في الدنيا إلا وتتخذ الليل وسادة تسند رأسها الصاخب إلى ريش سكونه الأسود، فلننتظر حتى يحل الظلام.

رفع يونس القلم، رتب القراطيس التي دوّن عليها ما سلف من حكايات، ثم وضع كل شيء في مكانه. أحضر كأس الماء ووضعه على الإسكملة بجانب رأس المترجم العجوز ثم خرج إلى العاصفة التي كانت تعوي في الخارج.

الفصل السادس

I- عاصفة كريت

جاء الليل فسكنت الريح لتهب في حجرة المترجم العجوز ريح حكاية أخرى ويعبق عطر الكلمات ويشهد الموقد عزفاً نارياً أتقنته أنامل اللهب الماهرة فسرت موسيقى الدفء كما في كل مرة في أوصال الغرفة الصغيرة. كانت تلك خامس ليلة يملي فيها العجوز فصولاً من سيرته على خادمه الألباني الصبور يونس. خمسُ ليالٍ ازدحمت فيها الحكايات وهي تنزل من سماء الذاكرة المكدودة لتهبط على القراطيس الصقيلة البيضاء مداداً يرسم للخيال صور حروفه البهيجة ويردد صدى كلماته المنسية.

كان مزاج المترجم العجوز رائقاً مثل سماء تلك الليلة الباردة الصافية المزدحمة بنجوم يرتعش ضوءها مثل قُبَل من نور. وحين انتهى أخيراً من العشاء الخفيف الذي أحضره يونس له، مدّ رجليه ثم وضع رقبته على يديه اللتين شبك أصابعهما المتألمة من خلف رأسه وصار ينظر لسقف الغرفة، ويملي

بهدوء: حين اقتربنا من جزيرة رودس كنت قد حكيت لرفاقي قصتي وانتهيت منها. لم يفاجئهم كثيراً أنني فتى مسلم أسافر معهم إلى بلاد مسيحية. وقد ظهر لي كذلك أن أحداً لم يعجب بحكايتي إلا شمعون النصيبيني الذي قال لي بلطف: "إسلامك يا أخي طريقك إلى الرب. ولكل منا طريقه" فاستحسن الراهب كلامه أيما استحسان بينما بقي رفيقاي الآخران صامتين.

لم نتوقف في جزيرة رودس لأن الرياح بقيت رخية موافقة طوال أيام خمسة من الإبحار فواصلت السفينة سيرها بعد أن التفت يساراً وصارت تبحر نحو الجنوب يوماً ونصف اليوم حتى لاحت لنا قبل الغروب جزيرة كريت من بعيد مثل سمكة كبيرة طافية على الماء.

اقتربنا عصراً من رأس الجزيرة وسرنا بمحاذاة ساحلها الشمالي وصرنا نرى صخورها وتلالها وارتطام الموج وتلاطمه المهيب في كهوف شاطئها الصخري. ثم هبت فجأة ريح عاتية كادت تخلع القلوع وتحطم الصواري. اربدت السماء وتكاثفت الغيوم فصارت كسفاً سوداء حتى ظننا أن الليل أرخى علينا سدوله وعلا الموج حتى كاد يضرب وجوهنا ولم يعد يثبت في وجه تلك الريح الهائجة أي شراع صغيراً كان أو كبيراً. هنالك أصبح النوتية يتصايحون ويذهبون من زاوية إلى أخرى مبهوتين حائرين، يهبطون الدرجات إلى أسفل السفينة ثم يعودون كالبرق، يصعدون الحبال ويهبطون منها في حركات غير مفهومة ثم رأينا اثنين من أمهرهم وأشجعهم يصعدون الحبال إلى أعلى ويرفعون الأشرعة ويلفونها ليتفادوا تأثير الريح العاتية حتى بدت الصواري والحبال كعظام نهشت ما يكسوها من لحم ضواري البرية.

لم أكن رأيت عاصفة بحرية من قبل. كنا في القرية كلما هبت عاصفة ندخل

حجراتنا ونغلق الأبواب والنوافذ نصغي لزمجرة الرياح وهزيم الرعد ونقر المطر على النوافذ ونشيج المزاريب وننظر برهبة تشوبها لذة غامضة إلى السحاب الثقال، إذ تمتشق سيوف البرق ونراقب تمايل الأشجار وتقصّف الأغصان حين تشتد العاصفة أكثر. لذلك لم يخالجني أي خوف في البداية وظننت أن الأمر شبيه بما يجري على البر دون أن يخطر على بالي أننا على متن سفينة تسير على الماء وتتأثر بأدنى حركة للريح. ازداد خوفي حين بدأت السفينة تميل ذات اليمين حتى تدحرج كل شيء كان في اليسار، نظرت حولي بهلع شديد فوجدت الراهب بولس يمسك بحافة السفينة والريحُ تلهو بإزاره وتبعثر لحيته وهو يتمتم بأدعية وصلوات كثيرة. بعد قليل استوت السفينة وكنا قد ظننا أنها ستنقلب ففرحنا كثيراً، لكنها سرعان ما مالت هذه المرة ذات الشمال أكثر مما مالت ذات اليمين وبدأ المطر ينهمر وانفجرت الدنان السماوية فسال ما فيها فوق رؤوسنا ولم نعد نميز شرقاً من غرب.

صارت الرياح الغاضبة التي لم نكن نعرف من أية جهة تهب، تضرب السفينة مثلما ينفخ مارد جبار في فراشة فتكاد تطيح بها وبمن عليها. جمحت السفينة كالفرس، إذ تفلت زمامها وحار الربابنة والنوتية في ضبطها وتوجيهها إلى جهة الجنوب، حيث كنا نرى الشاطئ الصخري المخيف. حدث كل ذلك والراهب لا يتزحزح عن مكانه. صار إزاره مبتلاً تماماً ورأيت لحيته التي خالطها الشيب تقطر ماءً وهو مغمض العينين ثابت هادئ يتمتم بصلواته الخفيضة. صرت أرتجف خوفاً وسَرَتْ إليّ عدوى الدعاء فبدأت أقرأ من سورة الرعد آية حفظتها أيام كنت طالب علم في مدرسة مسجد الخسروية في حلب. أما رفاقي فقد التفوا حول الراهب كأنهم يلوذون بصخرة وقد عقد الخوف

ألسنتهم كلهم حتى إن جرجس الذي كان يجد متى شاء ألفَ سبب ليهذر رأيته صامتاً وجلاً يمسح وجهه المبتل بيد ويمسك باليد الأخرى يدَ شمعون النصيبيني الذي كان أكثرنا ثباتاً.

لم يبق على ظهر السفينة التي بدأ الماء يتجمع على سطحها غير النوتية المرتبكين وذانك البحاران الشجاعان اللذان انشغلا برفع الأشرعة ولفها، كذلك بقي على ظهر السفينة فتيان اللغة وقائدهم أي بولس الراهب وسابا وجرجس وشمعون وأنا. وحين رآنا نوتي كهلٌ بقبعة كبيرة على رأسه ويتقلد سيفاً صغيراً، عرفنا فيما بعد أنه أحد ربابنة المركب، تقدم إلينا وصار يصرخ فينا ويشير بيده أن ادخلوا إلى جوف السفينة. حاوره الراهب بلطف باللغة الإيطالية ثم التفت إلينا وقال لنا اذهبوا أنتم وانزلوا إلى العنابر أما أنا فسأبقى أصلّي إلى أن تنزل رحمة الله. فعلنا ما أمرنا به الراهب الماروني ودخلنا إلى بطن السفينة التي كانت تعج بمسافرين آخرين منهم حجاج نصارى قادمون من بيت المقدس وتجار من بلاد الإفرنج رأينا بعضهم يشرب الخمر وبعضهم يقرأ في الكتب حتى إنني رأيت في زاوية شاباً كان يوشك أن يدوّن كلمات على صحيفة في يده، لكن سرعان ما اهتزت السفينة هزة عظيمة فسالت الخمر من الكؤوس ووقع ذلك الشاب على وجهه، حيث سقطت محبرته قبله مما جعلنا ننسى المحنة التي نحن فيها ونضحك لما رأينا الشاب يقوم ووجهه، يقطر حبراً أسود. بقينا نضحك حتى أعادتنا هزة أخرى أعظم من سابقتها إلى حلقة الخوف من جديد.

في تلك اللحظة شعرت بأن الموت بات قريباً جداً وصارت يده الثقيلة تطرق بابي بعنف وقسوة فغمرني يأس كبير وعدت أتلو من جديد آية "هو

الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً" من سورة الرعد ثم نطقت بالشهادتين وقلت في نفسي إننا لا محالة سنقبر هنا في هذه السفينة ثم سنصبح طعاماً لوحوش البحر. لقد أيقظ الشعور باقتراب الموت ذكرياتي فتراءت لي قريتي الصغيرة الجميلة وتذكرت أبي وأمي وأخواتي وأترابي وسيري حافياً على الساحل الرملي اللطيف يلطم الموج الرقيق قدميَّ الطريتين ويغسلهما بالزبد وأنا أجمع القواقع لألعب بها مع أخواتي في البيت حين كنت طفلاً. تذكرت الصفار الأرمني وزياراته الجميلة إلى قريتنا ثم تذكرت إستر وحبي لها لمّا صرت يافعاً، تذكرت سنونوتي عينيها تنقران خيالي مثل حبة حنطة نقراً رحيماً ولم أشعر إلا بدمعتين كبيرتين تنحدران على وجهي البارد. لم يلاحظني رفاقي وأنا أبكي فقد كانوا مشغولين بالتشبث بأي شيء حتى لا يرتطموا بالمقاعد والأخشاب وببعضهم بعضاً أيضاً. فجأة تذكرت حقائب أمي السبع في عنبر الأحمال وقلت في نفسي إن المرء يحب أن يدفن في وطنه وأنا لم يعد لي وطن على ظهر هذه السفينة، بل في جوفها، سوى حقائب أمي التي أعدتها لي ولا أعرف ماذا يوجد فيها، سأذهب إلى تلك الحقائب وأموت معها فلا بد أن فيها شيئاً من ريح الوطن ومن ريح أهلي الذين غادرتهم وقد لا أعود لهم إلاَّ ذكرى فتى رحل إلى بلاد بعيدة فالتقمه الموج.

*****

كان يونس منحنياً على الورقة يدوّن ما يمليه المترجم العجوز حين لاحظ فترة صمت طالت أكثر من العادة. ولما رفع رأسه استطاع أن يميز دمعتين براقتين غادرتا عيني العجوز وانحدرتا على صفحتي خديه حتى أوشكتا أن تغيبا في شعر لحيته.

لم يعرف يونس كيف يتصرف، أدهشته دمعتا مولاه العجوز فصمت قليلاً، ثم وضع القلم على المفرشة وحاول أن يلفت نظر مولاه بالنفخ والنقر على الورقة التي بين يديه موهماً أنه يزيل الرمل عنها.

كان وجه المترجم حزيناً إلى درجة لم يعهدها الخادم من قبل. أما عيناه فكانتا تنظران إلى صور من ماضٍ بعيد غابرٍ غار في كهوف الذاكرة عميقاً واستقر فيها إلى أن بدأ الحبر بإيقاظه من رقدته الطويلة قبل ليالٍ خمس.

عرف العجوز أن خادمه يخجل من الحديث عن دموعه وسبب ذرفه لها فأراد أن يبدد جو الحزن، فقال:

ألا تشعر معي بالبرد أيها الفتى الصبور؟

أجل يا مولاي. سأذهب لآتي بقليل من الحطب.

خرج الخادم ثم عاد بعد لحظات تفوح منه رائحة الليل فألقى بما جاء به في جوف الموقد حتى جمحت النار فرجع إلى مجلسه حيث يدوّن.

قال العجوز وقد اعتدل مزاجه من جديد: لم يبق الكثير لهذه الليلة. سننتهي من التدوين عما قليل. أنالك إرهاقٌ يا يونس؟

كلا يا مولاي ما نالني أي إرهاق وإن شئت سهرنا الليل، تُملي وأدوّن، حتى نبلغ ثلثه الأخير.

سُرَّ المترجم بكلام خادمه اللطيف، لكنه رد اقتراحه وقال:

ذاك ثلث أستبقيه لنفسي كي أستغرق في لذة التأمل يا يونس.

ثم شرع يسرد ما تبقى من الحكاية لتلك الليلة:

أحاط الموت بالسفينة من كل جانب ولم يبق على ظهرها سوى الربان الكهل ومساعده وبقي البحاران الشجاعان يحاولان لف آخر شراع استعصى عليهما بينما رأيت الراهب ينزل أخيراً عبر سلالم من خشب إلى عنبر الركاب

في جوف السفينة وكأنه خارج من بركة ماء. رأيته وأنا في الأسفل بين بضائع كثيرة يعصر ثيابه وهي عليه، لكنني لم آبه له، بل بدأت أبحث عن حقائب أمي السبع حتى رأيتها فاحتضنتها وأصبحت أبكي كالأطفال.

لم يعد يهمني ما الذي سيجري للسفينة وركابها، لم يعد يهمني هل نصل إلى روما سالمين أم نغرق في هذه العاصفة، لم يعد يهمني شيء بعد أن صرت قريباً من رائحة وطني. تذكرت لحظتها كلاماً للحوذي الكردي بوزان قاله لي في الطريق إلى ميناء الإسكندرون قبل أن أغادر إلى قبرص على متن السفينة الهولندية بلاك بيرل. قال لي الحوذي الصامت حينذاك إن الرحيل عن الأوطان ملحٌ يزيدُ جراحَ المرء ألماً. كان الحوذي صادقاً في كلامه، فلقد أحسست بملح الدنيا كلها يُذَرُّ في عروقي وشراييني ويعذبني. حنين مفاجئ ألمٌ بي مَرٌّ كالسكين على أوردتي وفتح جراحاً غائرة مُلئتَ ملحاً.

كانت السفينة تهتز بشدة والبحارة يجأرون بينما بقيت صامتاً مستسلماً للقدر الذي لا فكاك منه. لا أدري كم مضى من الوقت وأنا متكور فوق الحقائب كأني أحميها من غارة لصوص أو أحتمي بها من هجوم عدو. كنت أسمع من مكاني الحصين صراخاً وأصوات بكاء وأنين، وسمعت المجدفين يرطمون بكلام لم أكن أفهمه، لكنه كان ذا وقع حسن كأنهم ينشدون. مرّ بعض الوقت وأنا غارق في الخوف والظلمة ثم رأيت الراهب ينزل إلى الأسفل ويناديني. قلت له بصوت مرتعش: "أنا هنا يا عمي الراهب، أنا بخير" فحمد الله ودعاني إلى الصعود وهو يقول: "تعال إلى عنبر الركاب. العاصفة خفت قليلاً والمجدفون يأخذون السفينة إلى شاطئ كريت. لم أشأ أن أترك حقائب أمي، لكن صوت الراهب أشعرني بالطمأنينة فنهضت وأنا أنظر بحزن إلى الحقائب الصامتة ثم خرجت للأعلى.

استقبلني رفاقي بدهشة وفرح كبيرين ثم بادرني جرجس بقوله: "كلنا خفنا يا أخي لكنك ذبت في ماء الخوف كفص من الملح. ظنناك ألقيت بنفسك في البحر". قلت بشيء من الغضب "وهل يُلقي خائفٌ بنفسه في البحر يا جرجس؟". فردَّ شمعون: "ليس الخوف يا أخي، بل الحيرة التي ترافق الخوف هي التي تدع المرء يفقد صوابه". عقَّبَ سابا الذي كان يجلس بحزن وهو يعقد يديه على صدره قائلاً: "كلنا خفنا، كلنا خفنا من الموت حتى أبونا بولس". كان الراهب في الأعلى حين كنا نتحادث. صعدت درجة أو درجتين فرأيته يتحدث بالإيطالية إلى الربان الجنوي الكهل ذي القبعة الكبيرة الذي بدا شديد الحزن وما إن لمحني الراهب حتى ودعه وهو يشد على يده بحرارة بالغة ثم اتجه إليَّ وصار ينزل فنزلت قبله لأفسح له الطريق ولما وصل إلينا بادرنا بالقول: "يقول الربان إن العاصفة هدأت، ولكنه لا يعلم أتهب أخرى أم لا، لذلك يقوم الجدافون بسوق السفينة إلى أقرب شاطئ وربما نبيت ليلتنا هناك حتى نرى ماذا يجري غداً". ثم حدّق في عيني وقال بحزن: "عيناك تشيان بالحنين. الخوف يفعل بالمرء هكذا. والخوف في هذا المقام حقٌّ لأن سفناً كثيرة غرقت قبالة هذه الشواطئ أو جنحت لها".

توقف لحظة وجال ببصره على الآخرين ثم قال بأسى ظاهر: "لقد فقدت السفينة هذه اثنين من بحارتها سقطا في البحر فغابا في أعماقه. بحاران جاهدا على أن يلفا الأشرعة درءاً لمصيبة كبرى كانت تحيق بنا وكارثة كادت أن تكون محققة. أتدرون ماذا قال الربان آنفاً؟ قال إن الموت فخ لا مرئي يحمله المرء مثل قلادة أنّى ذهب. ولقد صدق هذا الجنوي في كلامه أيها الفتيان المباركون. الموت فخ ينصبه العمر للمرء، فخ يحمله الإنسان أبد العمر لكنه لا يعلم متى يُطْبِقُ فكاه على روحه".

*****

هدأت العاصفة فانقشعت الغيوم وصحت السماء أخيراً. كان نور الشفق يغمر البحر الساكن وكأن موجه الهائج لم يطل الصواري قبل قليل. نجوم متفرقة قليلة بدأت تظهر معلنة قدوم ليلة هانئة. صعد النوتية الحزانى على رفيقيهم إلى السطح ودفعوا المياه عنها، لكنهم لم ينشروا القلوع مخافة أن تفاجئهم ريح أخرى. كانت السفينة المتعبة تقترب من الشاطئ وكنا نرى المجاديف الطويلة تدفعها قُدُماً في إيقاع جميل رتيب أشعرني بامتلاء الكون كله بالحياة.

أنهى الترجمان العجوز جملته تلك وصار يتثاءب فقال وهو يضحك " أترى يا يونس! لقد انتهت العاصفة في الحكاية وانتهى معها صبري على السهر والإملاء".

رد يونس: "حكايتك ملأت قلبي رعباً يا مولاي. إن في ركوب البحر تهلكة". تثاءب المترجم العجوز مرة أخرى، ووضع يده يخفي تجويف فمه ثم قال وهو يضع قلنسوته السوداء: "ولذلك فإن ركوبه عند ارتجاجه حرامٌ شرعاً". قال ذلك ومسح قليلاً على وجهه وخلل لحيته بأصابعه المتألمة ثم ذهب إلى فراشه فاضطجع فيه بينما رفع يونس القراطيس والأقلام والمفارش والدواة ووضعها في أماكنها ثم غادر إلى حجرته بهدوء.

كان الثلث الأخير من الليل قد بدأ وحان وقت التأمل كما زعم المترجم العجوز فشرب كأس الماء التي وضعها خادمه يونس على الإسكملة الصغيرة ونظر حوله باحثاً عن نقطة يركز فيها نظراته ليستسلم لموج التأمل، لكنه شعر بوهن كبير ورغبة عارمة في الراحة فأطفأ الشمعة الوحيدة التي كانت لا تزال مشتعلة بجانب رأسه ثم غمره النوم بموج الغياب اللذيذ.

II- حقائب أمي السبع

صباح اليوم التالي، حين دخل يونس غرفة الترجمان العجوز وهو يحمل حطباً، فوجئ بغيابه. لم يعهده يونس هكذا، فالعجوز لا يغادر غرفته حتى ينتصف النهار. "لعله ذهب لقضاء حاجة!" قال يونس ذلك بصوت مسموع لنفسه ليبدد شكوكاً بدأت تساوره، لكن إبريق الماء النحاسي الذي يستخدمه المترجم العجوز كان لا يزال ممتلئاً ماءً عند العتبة مما ضَيَّقَ على يونس حلقة الاحتمالات.

وضع يونس حِمْلَه الخفيفَ حزمةَ الحطب الصغيرة بجانب الموقد وخرج يبحث في غرف البيت الفسيح عن مولاه ويلقي، كلما التقى بخادمة، سؤالاً خاطفاً: "أين مولاي؟".

لم يَدَّعِ أحدٌ أنه رآه، حتى إن خادمة ذات وشاح أحمر اختصت بتنظيف القدور سخرت منه قائلة: "ربما كان عليك أيها الخادم الوفي أن تكتري حماراً

وتدور على القرى تبحث عن عجوز ضائع". لم يُعْجِبْ يونسَ هذا الهُزْءُ الجارحُ منه ومن مولاه في ذلك الصباح البارد فرد قائلاً: " بل ربما كان عليّ أن أنادي على عقل ضائع لخادمة بوشاح أحمر ويدين متسختين ولسان طويل".

ثم خرج راضياً عن سرعة انتقامه فيما أطلقت الخادمة وراءه سيلاً من السخريات مشفوعة بقهقهات الأخريات.

لم تكن غرف الدار بتلك الكثرة التي عليها غرف قصور السلاطين أو الباشوات، بل كان يكفي نصف ساعة أو أقل ليجول المرء فيها كلها باحثاً عن بغيته، لذلك لم يطل الأمر بيونس سوى دقائق قليلة حتى عثر على آثار أقدام المترجم العجوز تذهب إلى أقصى الدار من جهة الغرب، حيث غرفة واسعة بنوافذ عالية تستعملها الخادمات لحفظ المؤونة علقت على بعض جدرانها باقات ثوم وبامياء مجففة وأكياس بصل وتراصفت على أرضها متكئة على الجدران جرارُ فخارٍ فيها عدس وأرز وجوالق صغيرة فيها طحين وجريش قمح وعلى رفوف طويلة ترادفت مواعين صغيرة من الفخار الصيني بأغطيةٍ من الكتان مربوطةٍ على أعناقها بخيوط حرير ملأى بالتوابل والبهارات المختلفة كالعصفر والدارصيني والزنجبيل والزعفران والكمون وذرور النعناع وبذور الفجل والبقدونس وما شابههما من بذور الخضار المنزلية. كذلك أُلقي في زاوية من تلك الغرفة الفسيحة عفش مهمل كالكراسي المكسورة وبعض الوسائد التي فرغت من حشواتها وكيزانُ آجُرٍّ مكسورةُ العُرى ومرايا قديمةٌ في أطر خشبية وهاون من النحاس بمقبض جميل وأمشاط وجوارب صوفٍ وقلانسُ لباد وصابونٌ ومواعين صدئة وأوانٍ من نحاسٍ اخضرت قُعورُها

وأكياس كتان صغيرةٌ فيها حناء وأشياء أخرى كثيرة.

صعد يونس الدرجات الأربع، التي زينتها من الجانبين أصص نما في ترابها الرطب أزهار فُلٍّ بيضاءُ تبدو كابتسامات مشرقة في ضوء الصباح، وسمع حينما وقف عند الباب المفتوح همهمة غامضة أدرك أنها صادرة عن مولاه، ثم دخل الغرفة التي كانت تفوح منها رائحة التوابل النفاذة.

لم يبدُ على وجه المترجم العجوز أية علامة للدهشة، بل كان الحزن سيِّد مَلامحه آنذاك وهو يقف بجانب حقائب كان يبدو عليها أنها تعود لزمن قديم.

استغربتَ غيابي يا يونس، أليس كذلك؟

سأل المترجمُ العجوز دون أن يتحرك من مكانه أو يغير وقفته بعد أن رد تحية يونس الذي أجابه بتوتر:

أجل يا مولاي. لقد بحثت عنك في كل البيت وسألت الخادماتِ أيضاً.

علت وجهَ العجوز ابتسامةٌ لم تستطع محو آثار الحزن وقال:

جذبتني الحقائب إلى هذه الغرفة يا يونس.

الحقائب التي ذكرتَها مراراً في حكاياتك يا سيدي؟

أجل يا يونس إنها هي. حقائب أمي السبع التي رافقتني إلى روما.

قال المترجم العجوز ذلك وقد زادت نبرة الحزن في كلامه بينما بقي يونس بالقرب من الباب صامتاً حائراً فيما يجب عليه أن يفعل أو يقول.

كانت شمسٌ دافئة في الخارج، حيث خرج المترجم العجوز من غرفة المؤونة يتبعه الخادم يونس، تسْرجُ جوادَ النهار وتُولم للزرازير وعصافير الدوري المرحة وليمة ضوء تسيل أشعته على أغصان شجرة الكينا الكبيرة في وسط الدار.

أما على الطريق المرصوف بحجارة صقيلة بين غرفة المؤونة وغرفة المترجم العجوز فقد سال صمت ثقيلٌ كالقطران أوشكت أن تبدده نبضاتُ قلب الفتى يونس الألباني الذي لم يعرف سبباً لتوتره في ذلك الصباح سوى مشادته القصيرة مع منظفة القدور ذات الوشاح الأحمر.

حين دلف الاثنان إلى الغرفة التي شهدت طوال ليالٍ خمسٍ تدوينَ حكايات كثيرة، أسرع يونس إلى الحطب فألقاه في الموقد الغافي وأشعل النار بينما اتخذ المترجم العجوز مجلسه، حيث اعتاد أن يملي سيرته صباحاً.

هل آتيك بالفطور الآن يا مولاي؟

سأل يونس وهو ينفض يديه من السخام فردَّ عليه مولاه:

لا رغبة لي بالفطور هذا الصباح. هلّا أتيتني بكأس من الحليب؟

حباً وكرامة يا سيدي. هل تتناول معي الحليب؟

لا يا مولاي، سبقتك اليوم إلى ذلك.

قالها يونس وخرج ثم عاد بعد قليل يحمل صينية عليها كأس بلور مترعةٌ بحليب ساخنٍ محلّى بالعسل مع قطعة مكعبة من الهريسة أعدتها منذ الليل إحدى الخادمات.

بعد أن مضى قليل من الوقت وبدأت النار تعلن سطوتها في مملكة الرماد انتهى العجوز من فطوره البسيط فقال منشرح الصدر:

الهريسة كانت طيبة لم آكل مثلها منذ زمن طويل. لقد ذكرتني بأمي.

كما ذكرتك بها حقائبها السبع!

كما ذكرتني بها حقائبها السبع.

أكد المترجم العجوز كلام خادمه ثم رفع الكأس البلورية إلى شفتيه اللتين

أخفاهما شاربان كثان ليتجرع سؤرة الحليب ويطلب من يونس أن يدوّن:

بعد انقشاع السماء وزوال الغُمَّة وسكون النفوس مرت سفينتنا المنكوبة بمحاذاة الشاطئ الصخري لجزيرة ستاندية الصغيرة فرأينا خلجاناً كثيرة غربي الجزيرة الجرداء الموحشة ثم دارت السفينة نصف دورة إلى جهة اليسار واتجهت جنوباً لتبدو لنواظرنا من بعيد أنوار فنار ميناء كاندية الذي يشبه منارة مسجد أنطاكية الكبير إلا أنه أثخن قليلاً.

وما إن مضت ساعة على الغروب حتى وصلنا الميناء فنزل بعض البحارة إلى البر بعد أن ألقوا المراسي ثم تبعهم ثلة من الركاب كان منهم رفاقي الفتيان جرجس وسابا وشمعون فيما بقي الراهب على حافة السفينة يتأمل النجوم التي غسلتها العاصفة فبدت لامعة كبيرة.

أما أنا فقد دفعني الفضول ممزوجاً بحنين ولَّده الخوف من الغرق إلى فتح تلك الحقائب حقيبةً حقيبةً فبدأت بالأكبر حجماً والأكثر وزناً وكانت خشنة الجلد ذات فتحة واسعة من الأعلى. ففككت عقدة الخيط الذي ربطت به أمي تلك الحقيبة الثقيلة فكان أول ما واجهني في الفضاء المعتم للحقيبة أكياسٌ خمسةٌ تزن كل واحدة منها ما يقارب رطلاً شامياً.

ولقد وجدت في الكيس الأول عدساً مجروشاً كأنه دنانير صغيرة كَنَزَها أحد الأشحَّة، وفي الثاني لمست برغلاً يُشاكل تِبْراً في حانوت صائغ، وفي الثالث غاصت أصابعي في فريكة خضراء تشبه حبات الزبرجد، وفي الكيس الرابع وضعت أمي فاصوليا بيضاء مثل شرانق دودة القز، أما الكيس الخامس فقد ملأته أمي أرزاً ثلجي اللون يلمع كأنه حبات لؤلؤ منثور.

أعدت الأكياس كما كانت، ربطتها بإحكام كما كانت أمي قد ربطتها

ثم انتقلت للحقيبة الثانية التي لم تكن أخف من الأولى ولما فتحتها وجدت قطرميزاتٍ أربعةً ملفوفةً بقماش كثير حتى لا تنكسر أثناء النقل.

كان القَطرميز الأول ممتلئاً بجبنة تغطس في الزيت نسميها الشنكليش اعتادت أمي على صنعها من لبن البقر، أما القطرميز الثاني فقد امتلأ بزيتون جبل الأكراد الأسود الشبيه بحبات الياقوت وهو مما كان يفضله أبي على سائر زيتون المنطقة، أما القطرميز الثالث فقد حوى قثاء مخللاً كأنه أصابع غانية، وفي الرابع كان يلمع عسلٌ ما زال في شهده كأنه ذهبٌ إبريز.

قلت في سرّي لما عاينت قطرميز العسل إن أمي أرادت أن ترسل معي الشرق كله وازداد فضولي لمعرفة ما في الحقائب الخمس الباقية فأسرعت لفتح الثالثة التي لم تكن قط ثقيلة الوزن ووجدت فيها أردية ملونة وجوارب صوف من نسج يدي خالتي الأرسوزية وابنتها الخياطة سلمى وسراويل وقلبقين من فرو السمور وبعض الثياب الأخرى.

أما الحقيبة الرابعة فقد ملأتها أمي نقلاً منوعاً من بذور محمصة لعباد الشمس واليقطين وحُمُّصٍ مملح ولوز وجوز وزبيب وما يقارب خمسَ أواقٍ بَلَحاً مصرياَ أحمر كأنه عقيقٌ يمانيٌّ، إضافة إلى أكياس صغيرة ممتلئة بالفواكه المجففة.

وحين فتحت الحقيبة الخامسة ألفيتها تحوي زوجين من الأحذية وأغطيةً للتدثر والوقاية من البرد، أما الحقيبة السادسة فكانت ثقيلة كالأولى وقد فاجأني ما بداخلها حتى إنني شككت أن والدي هو الذي ملأها وليست أمي فقد ملئت بقراطيس وأقلام ومخرزاً لثقب الورق ومصقلة ومصمغة ودواة نحاسية ممهورة بخاتم صانع موصلي شهير كان صديقاً لأبي اسمه سليمان قَلَمزاده الموصلي

مؤرخة في حلب عام أحد عشر ومئة وألف للهجرة، أي السنة التي سقطت فيها مئذنة مسجد البهرمية حين ذهبنا إلى حلب.

توقف المترجم العجوز قليلاً ليحدق في النافذة التي ظهر من خلالها سرب من الزرازير يطير مثل وشم متحرك صوب جهة الغرب فوق شجرة الكينا الكبيرة وبدا أنه تأثر لمرور السرب الأسود فقال بصوت متهدج يكمل سيرة الحقائب السبع: أخيراً وصلت إلى الحقيبة السابعة وكان قلبي قد امتلأ بالحزن لما عاينته من حرص أمي على راحتي وإرسال ما يندر وجوده في بلاد الصلبان ظناً منها أن تلك المؤونة ستدوم لسنوات حتى عودتي. لم تكن الحقيبة السابعة ثقيلة مثل سابقاتها، بل كانت أخفها وزناً، ولقد كانت حقيبة قماش سوداء اللون صغيرة الحجم لم يكن فيها سوى أكياس صغيرة عديدة ملأى بتوابل متفرقة كالكمون والكزبرة وورق الغار وأعواد الدارصيني والقرنفل وغير ذلك.

كما أنني فوجئت بتميمة مثلثة الشكل غُلِّفت بقطعة من المخمل الأخضر، فرفعتها من قاع الحقيبة ووضعتها في جيبي. أما آخر قطعة في الحقيبة السابعة والأخيرة فقد كانت مرآة جميلة مؤطرة بالأبنوس، مربعة الشكل شبراً في شبر، ملفوفة بقطيفة سوداء. توقف المترجم العجوز مرة أخرى، لكن دون أن يحدّق في النافذة التي غاب عنها سرب الزرازير، بل أسبل أجفانه وغرق في صمت ثقيل محدقاً بعيني خياله في مرآة سنوات غابرة لم يخرجه من أعماقها سوى صوت يونس الرقيق يسأل بفضول نادر:

أهي تلك المرآة التي رأيت في يدك قطعة منها لما بدأنا تدوين الحكايات قبل

ستة أيام يا مولاي؟

إنها عينها يا يونس.

رد المترجم العجوز بنبرة مغمسة في الشجن وصمت.

مرّ وقت غير قصير تخلله حسيس النار فيما بقي يونس منحنياً على الورقة المئة ينتظر ما سيمليه مولاه من حكاية المرآة التي انتظرها من أول يوم بيد أنه فوجئ بالمترجم العجوز يقول:

لكننا سنرجئ حكايتها إلى وقت آخر أيها الفتى الصبور.

لك ذلك يا مولاي.

سُرَّ العجوز لما رأى أن يونس لا يلح كثيراً لسماع قصة المرآة تلك، وهو لم يكن يرغب في ذلك أصلاً، فقال وهو يمسح بكف يده اليمنى ظاهرَ يده اليسرى: حين انتهيت من معاينة الحقائب السبع كلها وحدقت في المرآة الجميلة الموجودة في الحقيبة السابعة ورأيت وجهي الكئيب، ساورتني أحزان جمَّةٌ، أحزنني حرص أمي عليَّ، أحزنني أنني تركت بلادي وراء ظهري تحقيقاً لرغبة غامضة من رغبات أبي وصديقه الراهب الماروني الغامض، أحزنني فراق إستر وفقدان لحظات السعادة المسروقة الخاطفة، أحزنني فراق البحر وتلك القرية الوادعة. ولقد كدت أن أموت جزعاً لولا أنني رأيت الفتيان يعودون بصخب كبير من الميناء ومعهم ماء عذب وعنب وفواكه أخرى وكيزان ذرة مشوية ومسلوقة.

وصل المترجم العجوز إلى هذه النقطة من حكاية حقائب أمه السبع فتوقف عن السرد وقال حزيناً:

يكفي يا يونس، يكفي ما سردته. سأخلد للنوم قليلاً. دع كل شيء في مكانه

وتعال بعد ساعة فإن رأيتني نائماً أيقظني ففي جعبتي لهذا اليوم ما أحكيه.

فعل الخادم يونس ما طلبه مولاه المترجم العجوز فترك كل شيء في مكانه ثم غادر الغرفة التي كان البرد قد غادرها منذ الصباح الباكر.

III- رنين الخيال

حين مضت ساعة من الوقت عاد يونس إلى الغرفة فوجد المترجم العجوز يطالع في كتاب ذهبي الغلاف وقد استند بظهره إلى وسادة مسنودة للجدار ومد رجليه في اتجاه الموقد الذي بدأ الرماد يغطي جمراته الموشكات على الانطفاء.

لم يتكلم يونس حين جلس، حيث اعتاد أن يدوّن من سيرة مولاه صفحات متفرقات منذ ستة أيام. لم يتكلم المترجم العجوز أيضاً وبدا أنه مستغرق في المطالعة ولم ينتبه إلى دخول خادمه. وحين مرت ثلث ساعة على دخول يونس رفع المترجم العجوز رأسه وسأل يونس مستغرباً:

متى جئت يا يونس؟

قبل ثلث ساعة يا مولاي. قلت لي حين غادرتك: تعال بعد ساعة، فجئت ووجدتك مشغولاً بالمطالعة فلم أشأ أن أنغص عليك متعتك.

نعم هذا صحيح يا يونس. كنت غارقاً في متعة القراءة. هذا كتاب في اللاهوت وضعه توما الأكويني الصقلي. كتاب اسمه الخلاصة في اللاهوت.

هل هو بالإيطالية؟

كلا يا يونس. إنه باللاتينية وهذا جزء من كتاب ضخم وددت لو أنني أترجمه إلى العربية لكن لم يبق في العمر إلا أرذله. إنها حسرة قديمة سترافقني إلى القبر.

قال العجوز ذلك ثم صمت فصمت يونس. كانت جمرات الموقد أيضاً قد أخلدت إلى صمت رمادي بارد. ومن النافذة لم تعد أسراب الزرازير تظهر فوق شجرة الكينا التي بدت أوراقها ثابتة لا تحركها الريح. الريح صمتت أيضاً، وتلبدت السماء بغيوم بيضاء كثيفة كانت تمطر صمتاً. غرق الكون كله آنذاك في سكون مونق.

أما المترجم العجوز الذي لم يضع الكتاب ذا الغلاف الذهبي من يده وبدا غارقاً في الهدوء، فقد أراد أن يستمر في المطالعة ذاك النهار ورأى أن يرجئ التدوين إلى الليل فقال بنبرة اعتذار واضحة:

أرى أن تذهب لشؤونك يا يونس. سننتظر الليل حين تمتطي الحكاياتُ صهواتِ الخيال. الليل أنسب لما سأحكيه هذا اليوم.

فليكن كذلك يا مولاي. أتريد شيئاً تتناوله ريثما يتم إعداد الغداء؟

أجل يا يونس. لو أتيتني بطبق من الأرز المسلوق بالحليب.

ألا أشعل الموقد؟

بلى بلى. فالبرد يزيد من وجع النقرس.

هل آتيك أيضاً بمعجون الرحلة؟

أواه يا يونس كم أنت لبيب.

خرج يونس، بعد أن أمدَّه هذا الإطراء بنشاط جَمّ تلاحقه ابتسامةُ رضا افترَّ عنها ثغر المترجم المختفي تحت شاربيه الكثين.

*****

التحفت القرية الصغيرة بعباءة الليل وصارت تنصت لدعابات الموج أمام الساحل غير البعيد بينما تهيأ المترجم العجوز لنفض الذاكرة، وخادمُه الألباني يونس لتدوين ما يرشح من ذاك النفض من حكاياتٍ شتى تسيل على بياض القراطيس الصقيلة.

وما إن غمس يونسُ القلم في المحبرة ونفضها مرتين، كعادته حين يبدأ التدوين، حتى لمعت ألسنة لهبٍ في عيني المترجم العجوز البراقتين المحدقتين في نار الموقد فقال بصوت يلفه وهنٌ ممزوجٌ بحنان تهبه الشيخوخة للحناجر:

اقرأ يا بني آخر جملة دوّنتها هذا الصباح.

حمل يونس آخر ورقة كان يكتب فيها ونزل ببصره إلى آخر سطر فيها ثم قرأ بهدوء:

ولقد كدت أن أموت جزعاً لولا أنني رأيت الفتيان يعودون بصخب كبير من الميناء ومعهم ماء عذب وعنب وفواكه أخرى وكيزان ذرة مشوية ومسلوقة.

أي نعم والله. كدت أموت جزعاً. فلقد استبد بي الشوق إلى أهلي وقريتي وأنا لا أزال على ظهر السفينة. حينذاك قلت في نفسي: إن كنت الآن أجزع هكذا ولمّا يمض على رحيلي عن بلادي سوى أيام قلائل فكيف لو مضت عليَّ من غربتي أشهر وسنوات! دوِّن ما سأمليه عليك الآن أيها الفتى النبيه:

حين فرغت من مشاهدة كل ما في حقائب أمي السبع وأدركت حرصها على راحتي، هي التي كنت أظنها قاسية القلب جافية، ولما عاد رفاقي الفتيان من البرّ الكريتي محملين بالطعام والماء العذب، رنّت نواقيس الخيال رنيناً هائلاً كادت أن تتحطم من وقعه جدران الذكرى وزواياها المنسية.

خلت في تلك الآونة أن ذاكرتي هاون نحاسي ترتطم بقعره وجنباته مدقة في يد فتاة غير خبيرة تطحن الكزبرة بإيقاع وحشي. استعدت، وقد ابتعدت السفينة عن ميناء كاندية كثيراً، كل حياتي مذ فتحت عيني على هذه الدنيا، تذكرت أشياء ما كانت الذاكرة تسعفني فيما مضى بتذكرها حتى إنني صرت أشك في أن ما أتذكره على ظهر تلك السفينة الجنوية قد حدث فعلاً.

رأيتني طفلاً أمسك بجلباب أمي أشده وأطالب بالحمص المسلوق في صباحات الجمعة من أيام الشتاء، تذكرت أول سورة حفّظنيها شيخ الكتّاب في القرية ولما يكن عمري خمسة أعوام، قادتني الذاكرة إلى دهاليز ومتاهات كانت عصية عليّ قبلاً فرأيتني في حلب أركض في أزقتها الضيقة وأرنو إلى المشربيات التي تزين الحارات الظليلة يضوع منها عَبَقُ الياسمين وفَوْحُ الفلِّ وشذا القرنفل، كانت وجوه نساء جميلات ذوات بشرة بيضاء وعيون واسعة تظهر من كوىً صغيرة في المشربيات وكن يتحادثن من مشربية لأخرى عن كل شيء، عن نوع الغذاء وكمية التوابل وغياب الأزواج وشقاوات الأطفال وسوء أخلاق الحموات وخبث الكنائن وبلاهة الجارات وخفة عقولهن. كان الهمس الذي تجود به تلك المشربيات أحياناً يشي بقصص حب جديدة ومتشابهة أيضاً: فتاةٌ تختفي وراء ياسمينة تدلت من كوة مشربية وفتى عاشقٌ طائش يقف في الزقاق تحت المشربية يطارحها الغرام دون أن ينظر إلى أعلى

حَذَرَ الوشاة.

تذكرت بيتنا الجميل ومسجد الخسروية وقلعة حلب الشامخة وقوافل الجمال التي كانت تأتي بكل البضائع من أرجاء الدنيا لتفرغها في الأسواق والخانات الكثيرة هناك. تذكرت أبي وساعات سروره حين كانت تجارته في الورق مزدهرة ثم مرت ذكريات إفلاسه مثل سدول سوداء أمام ناظري.

تذكرت الخواجة مارتين، منافس أبي العتيد، بوجهه الكوسج وعينيه الزرقاوين ولكنته الثقيلة، إذ يتحدث العربية. كان ذلك الرجل الألماني شيطاناً في هيئة إنسان ولم تكن في قلبه ذرة رحمة أو شفقة ولقد آذى أبي كما لم يؤذه أحد من العالمين. تذكرت مواساة الراهب الماروني بولس وزياراته المتكررة لنا أيام محنة أبي. تذكرت كيف أن أبي كاد يبكي حين غادرنا حلب فجراً في شهر نيسان، حانت منه التفاتة خاطفة قبل أن يركب العربة وقال: "والله يا حلب إن فراقك مرّ، وقليلٌ في حقك دمعتان من عيني رجل".

لكنني لا أتذكر هل منح أبي حلبَ دمعتيه أم لا وهل كان صوت النشيج الذي علا في ذلك الفجر صادراً عن أمي أم أبي؟

تذكرت عودتنا الحزينة إلى القرية، وكيف أن أبي لملم جراحه بعد سنتين وداری إفلاسه بحنكة ربان لا يستسلم لأي ريح عاصفة فصار يتردد على أنطاكية ويسافر إلى سميرنة وبلاد أخرى قبل أن أغادر فازدهرت تجارته في وقت قصير وعادت البسمة إلى وجهه وغمرت البيتَ سعادة فقدنا طعمها لسنوات.

وما كان لخيالي الذي كان رنينه يزداد أن يتغاضى عن ذكرى إستر التي تركتها ورائي لا علم لها بمَا شاءه لي أبي من مصير ولا علم لي بما سيؤول إليه

أمرها في غيابي. تذكرت عينيها السوداوين وشفتيها الحلوتين ورائحة جسمها وحديثها الجميل ويديها المسخمتين وهرولتها اللطيفة حين تريد اللحاق بعربة أبيها الصفار الأرمني. تذكرت لحظات شوقي لها وانتظاري صباح كل جمعة مرور عربتها واستراقي السمع لقرقعة عجلات تلك العربة ووقع حوافر البغل، إذ يسوطه أبوها، ورصدي الحزين للغبار الذي كان يبتلع العربة بمن فيها حين تغادر القرية. كان قلبي يردد صدى وقع حوافر ذلك البغل الهزيل حتى صرت أتخيل أن قلبي جرس معلق برقبته النحيلة.

لاحت في مخيلتي بعد ذلك صورة الحوذي الكردي الصامت بوزان، فاستعدت كامل قصته الحزينة ووقوعه في حب الفتاة البدوية مياسة وجنونه ثم هروبه من عذاب أليم في لبوس علاج وقلت في نفسي ما أشبه قصص الحب وما أشبه عذاب المحبين.

تدافعت الذكريات بعد ذلك ثم صارت أجراساً تتصادم وترن فاختلطت الأزمنة وتسابقت على القدوم إلى حضرة الذاكرة حتى فاجأتني رغبة عارمة بالنوم كأنني أحاول السفر إلى تلك الأيام فنمت بين الحقائب ولم أنتبه إلا والراهب فوق رأسي يوقظني بلطف قائلاً:

قم يا فتى. قم فلقد طال نومك ورفاقك سيتناولون الآن فطورهم على ظهر السفينة. إنهم ينتظرونك.

نهضت متعباً خاملاً، وشعرت بأنني قضيت أمسي أحرث أرضاً أو أحفر ترعة أو أرفع أحمالاً. كانت كل بقعة من جسدي تتألم وما كنت أحسن القيام، لكن الجوع قادني لأجُرَّ نفسي وأشارك رفاقي فطورهم الخفيف الذي لم يكن سوى خبز وحليب وعناقيد عنب أبيض كان نور الشمس يضيء حباته حتى

بدت بذورها الداكنة.

*****

مضت أيام ستة والبحر هادئ والريح رخية والسفينة تمخر بنا العباب كأنها محراث هائل. كنا نسير بمحاذاة جزر كثيرة ويابسة متعرجة مديدة وخلجان عديدة وشاهدنا غروب الشمس وشروقها الجميل ثلاث مرات أو أكثر. كان رفاقي الفتيان يثرثرون كثيراً حين يجتمعون عند مقدم السفينة أو على حوافها أو في بطنها حين يهجعون مساءً. ولما رأيتهم ذات مرة يضحكون من نكتة ألقاها جرجس المصري قلت في نفسي: آهٍ يا رفاقي. لو أن خيالكم رنَّ مثل خيالي لأنصتم لرنينه وما أصغيتم لهذا الهراء.

أما الراهب الماروني فلم يكن يتركنا إلا في مرات قليلة يتحادث فيها مع النوتية ويناقش بعض الركاب الذين كانوا يتحلقون حوله يطرحون عليه أسئلة ثم يصغون بانتباه لأجوبته، وحين دخلنا صباح اليوم السابع لاحت لنا من بعيد قمة بيضاء لجبل صاعد في السماء على البر. أشرق وجه الراهب بالبشر وهو يشير بيدهِ اليمنى إلى تلك القمة قائلاً:

هذا هو جبل النار وقد عمّمَتْه الثلوج وأسفل منه إلى اليسار، حيث ترون تلك الصخور العظيمة كأنها عمد صاعدة من البحر في السماء، بلدة الياج، أما تلك التي على يسارها فهي مدينة قَطانية. ها هي جزيرة صقلية أيها الفتيان المباركون. إننا نقترب من روما.

غمرتنا سعادة غريبة هي سعادة الوصول. فإن المرء يصيبه، حتى لو ساقوه إلى سجن، مللٌ من طول الطريق ويتمنى أن تنتهي الرحلة أخيراً ويسعده الوصول إلى باب السجن. وبتلك السعادة التي غمرتنا كنا نقترب من صخور عظيمة

مركوزة في البحر يطوقها الموج من أسفلها، ولما اقتربنا أكثر وصرنا نتجه شمالاً حاذينا قلاعاً صغيرة مبنية على الصخر فيما بدت القمة الثلجية لجبل النار مثل كتاب مفتوح في السماء.

مدّ المترجم العجوز، إذ أنهى جملته تلك، يده اليسرى إلى قلنسوته فنزعها لتظهر صلعته الخفيفة وشعره القصير الشائب وصار يحك فروة رأسه حكاً خفيفاً ثم قال:

ها قد وصلنا إلى نهاية الحكاية لهذه الليلة. فلننعم بسعادة الوصول هنا أيضاً يا يونس.

ابتسم يونس، وقد فهم إشارة مولاه، وهبّ على وجهه نسيمُ سعادة رقيقٌ، فضمَّ القراطيس وعُدَّة التدوين ثم نهض ووضعها في أماكنها وخرج سعيداً إلى الظلمة الباردة.

الفصل السابع

I- الليلة السابعة

بدأ نهار اليوم التالي رتيباً بارداً غائماً في قرية ميدان على ساحل البحر الأبيض المتوسط قريباً من مدينة أنطاكية. كانت الرتابة باسطة ذراعيها بكل مكان حتى بمنزل المترجم العجوز الذي ورثه من أبيه التاجر الميسور رشدي الشركسي الذي شيَّدَ ذلك البيت بالحجارة البيض منذ مئة عام وجعله كثير الحجرات تحيط بباحة واسعة الأرجاء وزرع في وسطها بيديه شجرة كينا بينما زرعت زوجته سارة، والدة المترجم العجوز، شجيرتي النارنج والليمون جنوبي غرفة صغيرة أعدت لراحة التاجر وزوجته، وهي الغرفة التي سكن فيها المترجم العجوز مذ عاد من رحلته الطويلة إلى روما.

وفي تلك الغرفة بالذات، العابقة برائحة الزمن الغابر والحبر النازف والحطب المحترق، وعلى مدى ست ليالٍ مؤنسة، أملى المترجم العجوز على خادمه

الألباني يونس حكايات كثيرة كان آخرها حكاية مرور السفينة الجنوية التي كانت تقل راهباً مارونياً اسمه بولس عبد النور يرافق ثلة من الفتيان، بينهم المترجم العجوز نفسه، بمحاذاة الشاطئ الشرقي لجزيرة صقلية.

*****

قبل أن يبدأ تدوينَ آخر صفحات الكتاب الأول، جلب يونسُ لمولاه الفطورَ المعتاد: حباتِ زيتون ولبناً خاثراً صُفِّيَ ماؤه فتصلب ورُشَّ عليه ذرور النعناع مع خصلة صغيرة من الصعتر البري اليابس ورشحة من زيت الزيتون ثم قليلاً من العسل مع كسرة خبز، بينما وضع لنفسه بيضاً مسلوقاً وكأس حليب ساخن محلى بالقند المصري.

تناول الاثنان فطورهما بصمت يليق بمهابة ذلك النهار ورهبة الانتظار، وما إن انتهيا منه ورفعت الأطباق حتى رمى المترجم العجوز مغتبطاً سؤالاً مفاجئاً:

أتشم مثلي رائحة الثلج يا يونس؟

الثلج؟

أجل الثلج، فللثلج عبق لا يخطئه أنفي!

نظر يونس عبر النافذة إلى طبقة الغيم البيضاء التي كست السماء وقال مستغرباً:

لا ثلج يا مولاي. ليست هناك في الأعالي سوى غيوم بيض.

وهذه الغيوم البيض السابغة التي تراها الآن حبلى بالثلج يا يونس. سترى حين يهبط علينا الليل كيف تندف السماء بالثلج.

سأجلب حطباً يكفينا إذاً.

لا تثقل على نفسك، هات حزمتين فقط.

خرج يونس إلى زاوية في المنزل يُحفظُ فيها الحطب ثم عاد سريعاً يحمل حزمتين منه ألقاهما بتؤدة قرب الموقد الذي أضاءته نار بهيجة مؤنسة، ولما همَّ بالجلوس قال المترجم العجوز بعد أن شكره:

لن أملي عليك شيئاً حتى حلول الليل يا يونس. يمكنك الذهاب إلى حيث تشاء على أن تعود بعد المغرب.

والغداء يا مولاي؟

لا تقلق، سأعتني أنا بذلك. سأخبر الخادمات بما أشتهيه في هذا اليوم البارد.

قال العجوز ذلك ثم مدّ يده إلى كتاب خلاصة اللاهوت لتوما الأكويني، لكنه، وقبل أن يغادر يونسُ الغرفةَ، استدرك قائلاً وهو يبتسم:

إن أبيت إلا أن تمُنَّ عليَّ بخدمة تسديها لي، فإنه يمكنك أن تطلب من الخادمات أن يهيئن لي حساء العدس مع بصل يابس وقليل من الخبز.

*****

ما إن رتب الليل وسائده المحشوة بالرهبة لتتكئ عليها الحكايات حتى وشوشت السماء أسرارها البيضاء لشجرة الكينا الكبيرة التي دأبت تستطلع الأعالي واقفة في وسط الدار منذ عشرات السنين. كان الخادم الألباني يونس قد اتخذ مكانه قريباً من مجلس مولاه المترجم العجوز متهيئاً للتدوين محدقاً بصمت في النار التي كانت تتلوى كأنها راقصة عارية متهتكة ترقص على إيقاع غريب.

وقبل أن يبدأ المترجم العجوز تدوين الحكاية سأل خادمَه المشغول بتهيئة

عدة الكتابة:

كم ليلة صار لنا ندوّن يا يونس؟

هذه هي الليلة السابعة يا مولاي.

أشعل سبعة شموع إذاً. أشعل السراج أيضاً ولتمتلئ الغرفة بالنور. سيكون لما تدوّنه، بالرغم من قصره، طعم مختلف هذه الليلة. سيكون للحكاية طعم المفاجأة اللذيذ الساحر.

ثم صمت قليلاً ومسح على لحيته الكثة وقال:

لم يبق سوى سطور قليلة آثرت أن أفرد لها ليلة كاملة. ستنتهي من تدوينها في دقائق معدودات.

عمد يونس إلى سبعة شموع ثخينة، غليظة الذبالات لم يمسسها النار قبل تلك اللحظة، فأشعلها ووضعها في أماكن متفرقة من الغرفة. لم تمض سوى برهة قصيرة حتى خفقت رايات الضوء فبدت الأشياء في ظلها فاضحة الظهور: شظية مرآة، كتبٌ متراصفة وقراطيسُ مبثوثةٌ في الزوايا ومحابر فارغة وقصب عانى من قَطٍّ رأسه مراراً حتى عاد كالخنصر أو أقصر، وكرسي بمساند منجّدة ومكسوة بحرير حشوهُ صوف الغنم، وبسط وسجاجيد وإسكملة من الأبنوس مطعّمة بالصدف والعاج وأشياء أخرى كثيرة صارت ترفل في نعيم النور المتراقص على رؤوس الشموع السبعة في الليلة السابعة من التدوين، أضحى النور في تلك الليلة سلطاناً خضعت لسطوته الأشياء بينما كان ثلجٌ أخرسُ ينسج رداءً ألقاه برِقّة وحنان على كتفي الليل الذي بسط سلطانه في الخارج.

عمَّ السكون كل الأرجاء حتى أضحى المرء يظن لثقله أنه يستطيع لمس السكون بيديه أو شم رائحته، حينذاك عرف المترجم العجوز أنَّ أوان الحكاية قد آن أخيراً فقال لخادمه المنتظِر بصبره المعهود:

اكتب يا يونس، فقد أزفت ساعةُ أن ننهي الكتاب الأول:

عبرت سفينتنا مضيق مسينة الذي عجَّ بسفن كثيرة واتجهت شمالاً. كانت مدينة مسينة مستلقية في حضن جبل شديد الخضرة ذكّرني بالجبال المحيطة بقريتنا فعادت إليّ أمواج الشجن لتغمرني بزبدها الكثيف، لكن الراهب سرعان ما توسطنا وهو يشرح لنا أسماء الأماكن ويعرّف البقاع التي نمرّ بها فعرفنا أن ما على يميننا من البر هو إيطالية وما على يسارنا هو صقلية حتى جاوزنا المضيق ثم حاذينا ميناء نابولي فاجتزناه حتى صرنا نقترب بعد أيام قليلة بحمد الله ولطفه وكرمه من روما إلى أن وصلنا أخيراً البر الذي يقابلها ويبعد عنها ستة فراسخ بعد حوالي عشرين يوماً من مغادرتنا ميناء الإسكندرون في آخر أحد من شهر حزيران من عام ألف وسبعمئة وثمانية من التاريخ الميلادي.

ظنَّ يونس أن الحكاية انتهت هنا فهمَّ بوضع القلم وضم الورق، إلا أن مولاه أشار بيده أن ابق في مكانك فغمس القلم من جديد في المحبرة متهيئاً لتدوين القليل المتبقي من حكاية الوصول. حينذاك قال المترجم العجوز بنبرة اكتنفتها سعادة غامرة:

إن قلبي الآن يخفق، يخفق كما ألسنة اللهب في هذا الموقد. أتعرف لذة الوصول إلى النهايات يا يونس؟ إن له لمذاقاً حلواً لا يعرفه إلا الواصلون.

ودون أن تغادر نبرتَه تلك السعادةُ الغامرة أضاف:

ولكن كما أن للوصول لذة فائقة فإن له رهبة وجلالاً أيضاً يا يونس. دوِّن هذه السطور قبل أن نختم كتابنا الأول:

ولما اقتربت السفينة الجنوية صباحاً من الساحل الإيطالي الذي يبعد ستة فراسخ عن روما بتنا نرى الصيادين في قواربهم الصغيرة يتصايحون حتى رست السفينة بالقرب من ميناء قديم يسمى أوستيا لا تستخدمه السفن الكبيرة إلا نادراً. كنت صامتاً مرهقاً أخرستني اللهفة وأخواتها واختلطت لديّ مشاعر كثيرة منها السعادة بقرب الوصول والفرح بالسلامة والخوف من هذه البلاد الجديدة التي كنت أجهلها تماماً كأنها طلسم على باب مغارة مسحورة. كوَّمت حقائبي أمام رجلي كما فعل رفاقي الآخرون، الصامتون المترقبون مثلي، فيما بدت علامات الفرح واضحة على محيا الراهب الماروني الذي كان خير رفيق لنا في تلك الرحلة، وكان السعيد الوحيد، أو هكذا بدا من ملامحه، في تلك البرهات المهيبة.

لحظة نزلنا إلى البر الإيطالي، ونقل الحمالون حقائبنا، وغادرت السفينةُ الجنوية برايتها البيضاء ذات الصليب الأحمر لتكمل رحلتها إلى جنوة في الشمال، شعرت بانكسار هائل تردد صداه في جنبات الروح. لا أدري أي شيء كان ذاك، لكنني كدت أسمع صوت الانكسار الكبير حتى ظننت أن رفاقي أيضاً شعروا به. كان يشبه انكسار آنية حين تهوي على أرض من الرخام. لقد تشظت روحي حتى إنني سمعت بخيالي رنين الشظايا، إذ ترتطم بالأرض الإيطالية الغريبة.

في تلك اللحظة، أي حين وطئت قدماي الأرض اليابسةَ عند الضفة

الجنوبية لنهر التيبر، وهو نهر كبير يصب بالقرب من ذلك الميناء، عرفت أن الوطن صار ذكرى ماضية وما عليَّ إلا أن أعزّي نفسي بأمل العودة إليه، وما على روحي، التي أدركتُ أخيراً أنها هي التي سمعت صوت انكسارها، إلا أن تقتات وميضَ ذاك الأمل وبريقَ تلك الذكرى بعد أن أصبح جبر كسرها بعيد المنال. أدركت حينها أنني دخلت عالماً لا يشبه ما ألفته حتى يوم رحيلي. أدركت أنني خلفت ورائي بلاداً تدين بالإسلام ويصدح فيها صوت الأذان الجميل وترتفع فيها الأهلة عزيزة فوق القباب والمآذن الشامخة وتتصادم فيها لغات ألفتُ وَقْعَها واستأنست بموسيقى ألفاظها، بلاداً تتجاور فيها ملل ونحل شتى وَشَجَتْ على تلك الأرض البعيدة التي باتت تفصلني عنها الآن بحور وشطآن وجزر وخلجان وأيام طويلة من السفر محفوفة بالمهالك. لقد تركت ورائي أباً يرجو لابنه عودة ميمونة، وأمّاً سيضنيها السهاد وهي تعد الأسابيع والأشهر تحسب موعد رجوعي، وحبيبة ستنتظرني وسيكويني جمر فراقها، تركت قرية وادعة شهدت مولدي وطفولتي الأولى وحبي الأول، أحببتها وأحبتني، غسلت وجهي برذاذ موجها وتركت شمسها آثاراً على جسدي، عرفت أسماء أشجارها وأزهارها وتلالها وساحلها وما يجري حولها من جداول وأنهار، وما يحيط بها من قرى وبلدات، وحتى أسماء طيورها التي تحلّق في السماء ونجومها التي تزين صدر الليل.

أما هذه البلاد الجديدة، هذه اليابسة المستطيلة كخنجر في غمده! لقد ازدحمت الوساوس في قلبي وترددتُ قبل أن أضع قدمي لأخطو خطوتي الأولى فيها وتناهبتني الأسئلة: أي أرض هذه؟ ماذا تسمى، ما الذي يقع

شمال هذا النهر الذي يصب بصخب مدهش في البحر؟ بل أين الشمال وأين الجنوب؟ ما اسم تلك التلة هناك؟ وما نوع هذه الشجرة الغريبة على يسارنا؟ وإلى أين يؤدي هذا الدرب المتعرج الصاعد إلى اليمين؟ من أين تشرق الشمس وأين تغيب؟ في أي جهة تقع بلادي؟ أين هي القبلة؟ وهل سأبقى هنا لسنوات عدة دون أن أرى مئذنة واحدة فيما ستصدم عينيَّ الصلبانُ على أبراج الكنائس وسيرتفع صوت النواقيس في كل مكان؟

لقد كانت الخطوة الأولى لي في تلك البلاد الغريبة خطوة متهيبة لأعمى يتحسس مكانها بحذر بالغ قبل أن يضع قدمه. وأنا، وبالرغم من احترازي وانتباهي، تعثرت، في خطوتي الأولى تلك، بهذه الأسئلة مثل قطاة تتعثر بشبكة نصبها صياد حاذق أبدع في التمويه.

تبّاً لك يا بولس.

هكذا قلت لنفسي وأنا أشعر للمرة الأولى بكراهية تجاه الراهب الماروني، بينما كان حوذي غريب الأزياء يلقي بأمتعتنا في عربته التي صعدتها من الخلف مع رفاقي الآخرين. لفت انتباهنا ونحن صامتون في العربة الواقفة، غيابُ الراهب الماروني فسادت رهبة للحظات قصيرة بددها ظهور الراهب بصحبة شاب بلحية خفيفة وعينين خضراوين في حوالي العشرين من العمر كان يضع على رأسه الحليقة قلنسوة بيضاء ضاربة للصفرة، ويتقلد صليباً ذهبياً تدلى على ثوبٍ أسود طويل يلفه من الخصر زنار حريري أصفر عريض.

هذا هو الشاب المبارك عبد الله السروجي. إنه رفيقكم الذي سبقكم إلى هنا منذ ثلاث سنوات. سيصعد معكم ويهتم بأمركم طوال الرحلة إلى روما.

قال الراهب الماروني ذلك ثم جلس بحبور عظيم بجانب الحوذي الإيطالي الذي ساط الجواد لتنطلق العربة نحو روما على درب ممهد جيداً ومعشب الأطراف فيما ساد بيننا، نحن الفتيان الأربعة والشاب عبد الله السروجي، وجوم ثقيل.

*****

لما أملى المترجم العجوز تلك الجمل الأخيرة من سيرته، تنفس الصعداء كمن ألقى حملاً ثقيلاً عن ظهره، ثم نهض من مجلسه لينتصب واقفاً وقد أطربه قرب نهاية الكتاب الأول. نظر في الشموع السبعة المتقدة شمعة شمعة متذكراً ما مضى من حكايات الليالي السبع السالفة، سار مطأطئ الرأس على مهل ويداه خلف ظهره حتى وقف بالقرب من يونس فحدّق فيما بين يديه من قراطيس وأقلام ثم قال برضا غامر:

ها قد وصلنا إلى النهاية أيها الفتى الصبور. دوِّن الخاتمة يا بني.

دوِّنها يا يونس:

انتهى بحمد الله ومنّته الكتابُ الأول مما أملاه المترجم الراجي عفو إلهه محمد عشيق الدين الأنطاكي المشهور باسم عشيق المترجم ابن التاجر المرحوم رشدي الشركسي الأنطاكي غفر الله له ذنوبه ورحم والديه، على خادمه النبيه يونس بن إيبش الألباني حفظه الله ورعاه. وقد سماه رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان.

حُرِّرَ في يوم السبت سلخ شهر رجب المُرَجَّب عام ستة وسبعين ومئة وألف، الموافق للثاني عشر من شهر شباط سنة ثلاثة وستين وسبعمئة وألف. ويليه بحول الله وقوته الكتاب الثاني وفيه بقية تفاصيل تلك الرحلة وما لقيه المترجم عشيقٌ وصحبه الفتيان

في تلك البلاد من أيام صفاء وسرور ونكبات وكدور. والله المستعان، هو مولاي وإليه أنيب.

xxxxx

ما إن أنهى المترجم العجوز عشيقٌ بن رشدي إملاءَ جملة الختام تلك واقفاً ثم انحنى يقبل جذلاً جبينَ يونس قبلاتٍ متلاحقة، حتى ازدادت النار في جوف الموقد أجيجاً واضطرمت كأنها ترقص احتفالاً بالوصول إلى النهاية، بينما كان الثلج يحوك خارجاً على نول السماء بأنامل الليل البارد أرديةً بيضاءَ هفهافةً: رداءً لساحة الدار ورداءً لشجرة الكينا الكبيرة التي تتوسطها ورداءً لكل من شجيرتي النارنج والليمون أيضاً، وكذلك رداءً لسطح الغرفة الصغيرة الممتلئة دفئاً ونوراً، حيث انتهى عشيقٌ المترجم وخادمه الفتى الألباني الصبور يونس لتوّهما من وضع قفلٍ على باب الحكاية.

فهرست

رواية ■ عشيق المترجم

ركز العجوز نظراته في النافذة حيث كانت ريح خفيفة تذرو الثلج فتثير منه ما يشبه غباراً أبيض، وواصل سرده:
كانت تُدعى إستر. وكانت فتاة سمراء البشرة، مكتنزة اللحم، صافية العينين سوداءهما كأنهما سنونوتان، فاحمة الشعر، ممشوقة القوام، نحيلة الخصر. ولقد عرفنا فيما بعد نتفاً من قصتها الحزينة. فقد كانت طفلة يتيمة الأبوين من قرية بالقرب من جبل موسى. ولما كان إسحاق الصفار الأرمني يدور على قرى كثيرة فقد لفتت إستر النبيهة نظره إليها، فتبناها وصار يأخذها معهُ إلى قرى المسلمين لتدخل البيوت بلا حرج وتساعده في كسب رزقه وتقول له يا أبت، ويقول لها يا ابنتي. ولقد علقت بها مذ كنت يافعاً في الثالثة عشرة من العمر حين كان الصفار يدور كل يوم جمعة على بيوت القرية

جان دوست..

روائي ومترجم كردي سوري ولد عام ١٩٦٥ في بلدة عين العرب بمحافظة حلب، يحمل الجنسية الألمانية.
له عدة روايات بالكردية والعربية وبحوث ودواوين شعر وترجمات عديدة. حصل على جائزة القصة الكردية القصيرة في سوريا عام ١٩٩٣، كما نال جائزة الشعر عن مهرجان الشعر الكردي في مدينة إيسن ألمانيا ٢٠١٢، وحصل أيضاً على جائزة الكتاب الشرقي عن ترجمته لقصص كردية في كتاب بعنوان رماد النجوم ٢٠١٣.



دار ورق للنشر والتوزيع
DAR WARAQ PUBLISHING AND DISTRIBUTION
Tel : + 971 4 264 4410 - Fax : + 971 4 272 2077
P.O.Box : 91110 Dubai, UAE
info@darwaraq.ae | www.darwaraq.ae